كيف الوصول إلى رضاك يـــارب

فضيلة الشيخ عبد الحميد كشك

المكتبة التوفيقية
أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـة

الحمد لله رب العالمين وأصلي وأسلم صلاة وتسليما يليقان بمقام أمير الأنبياء وإمام المرسلين . وأشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين وأشهد أن سيدنا ونبينا وعظيمنا محمدا رسول الله خاتم الأنبياء والمرسلين . صل اللهم وسلم وبارك على هذا النبي الأمين وعلى آله وأصحابه الغر الميامين وارحم اللهم مشايخنا ووالدينا وأمواتنا وأموات المسلمين أجمعين .

اما بعد ...

فهذا كتاب قد اشتمل على أحاديث متنوعة تأخذ بأيدى السالكين إلى النجاة وتنقلهم من كثافة المادة إلى لطافة الروح . فالنجاة مطلب عزيز المنال ، قوى الهدف رفيع الشأن . فما أجمل أن يسأل الصحابى الجليل ، عقبة بن عامر ، وما أعظم أن يجيب مبعوث العناية الإلهية وشمس الهداية الربانية فى بلاغة موجزة وإيجاز بليغ . قال ، عقبة ، .

ما النجاة يارسول الله ؟ قال : ، **امسك عليك لسانك . وليسعك بيتك . وابك على خطيئتك** ، : نعم ماأعظم أن يشخص الرسول الكريم ﷺ الداء وما أروعه إذا وصف الدواء .

فالنجاة كلمات ثلاث ، لكنها فى سموها لو صعدت إلى السماء لكانت قمرًا منيرا : وفى جمالها لو هبطت إلى الأرض لكستها سندسا وحريرا : وفى جلالها لو مزجت بماء البحار لجعلته عذبا فراتا سلسبيلا . إنها تنتقل بالإنسان من صلصال من حمأ مسنون إلى نور يتنسم فيه الروحانيات الصافية : فيسلك إلى معارج القدس ليقف على حقائق الأسرار ودقائق الأخبار حيث يقيم فى مقعد صدق عند مليك مقتدر .﴿ **فاستبقوا الخيرات وسارعوا إلى مغفرة**

من ربكم وجنة عرضها السمٰوات والأرض اعدت للمتقين ﴾
[آل عمران : ١٣٣]

﴿ وقل إعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ [التوبة : ١٠٥] .

﴿ والله غالب على امره ولكن اكثر الناس لا يعلمون ﴾
[يوسف : ٢١]

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . .

فضيلة الشيخ / عبد الحميد كشك

طريق النجاة

إلى الذين يرجون رحمة الله ويخافون عذابه ، وإلى الذين ينشدون رضاه ـ سبحانه وتعالى ـ لينالوا السعادة فى الدارين . إلى : ﴿ **الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ، وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقاً ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم** ﴾ [الأنفال : ٧٤] .

اخى المسلم :

إن تاريخ الأمة الإسلامية مع اليهود والصهيونية حافل بالمخاطر ، مليء بالأحداث الجسام ، مفروش بالأشواك ، أحاطت بجانبيه الأحراش التى آوت إليه العقارب والحيات ، إذا سلم السائر فيه من نهشة الثعبان ، فقد لايسلم لدغة العقرب : إنه تاريخ يضرب بجذوره فى باطن الأرض حيث عداء اليهود والصهيونية السافر للإسلام الحنيف منذ فجره ، فاليهود هم الذين وقفوا للدعوة يكيدون لها بطريق الدس والفتنة ، ويوم انتصر المسلمون فى غزوة بدر هاجت عقارب البغضاء في صدورهم وتحركت ثعابين الحقد في نفوسهم ، وأرسلوا وفدا منهم رسول الله ـ ﷺ ـ ليقولوا له : يا محمد ! لايغرنك إن كنت قد انتصرت على أهل مكة ، فأنهم لايتقنون فنون القتال ، وأما إنك من تنكب عن طريق الجادة ، ويمد يده إلى كل عاثر حائر فى لجج البحار المتلاطمة . وإذا كانت الصهيونية تتبجح ، وتصرح ولا تتوارى ، وتعلن أنها قامت على التوراة . فأولى بأهل الحق أن يقولوا لهم بدون مواربة : إنهم قاموا على القرآن ، والقرآن حق ! وجل جلال الحق إذ يقول فى الحديث القدسى : « **أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى : فإن ذكرنى فى نفسه ، ذكرته فى نفسى . وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم ، وإن تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلى ذراعا تقربت إليه باعاً ، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة** » . فاللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحابته الغر الميامين .

القرآن العظيم وأثره فى النصر

لما كان أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، كان لزاماً على كل من يدعو إلى الله على بصيرة أن يتخذ من القرآن روحا تحيى فى الأجساد مواتها ، ونورا يبدد كاثنات ظلماتها ، ففى القرآن روح الحياة ، ونور الهداية ﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ، ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض . ألا إلى الله تصير الأمور** ﴾ [الشورى : ٥٢ - ٥٣] . والقرآن العظيم كتاب الاسلام الخالد الذى لاتبلى جدته ، ولا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق عن كثرة تلاوته : يقول الله تعالى فى هذا الكتاب العزيز : ﴿ **الله نور السموات والأرض** ﴾ [النور : ٣٥] ، ويقول عنه أيضا : ﴿ **فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا** ﴾ [التغابن : ٨] . ويقول عن رسوله العظيم : ﴿ **قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين** ﴾ .

فتأمل يا أخى هذا النظام الفريد ، وهذا العقد الربانى المجيد ! الله نور ، والقرآن نور والرسول نور ، والوظيفة التى نزل الكتاب وبعث أمير الأنبياء هى إخراج الناس من الظلمات الى النور : ﴿ **الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد** ﴾ [إبراهيم : ١] .. فهذه الأمة المنوط بها هذا الشرف العظيم ، المنزل عليها هذا الكتاب الكريم ، واجب عليها أن تعيش فى هذا النور لتأخذ مكانتها فوق قبة الفلك فى باذخ العلياء ولا يليق بها أن تحيد عنه أو تصعر خدها له ، فتنحدر إلى فلول الدجى وغياهب الظلمات وحضيض الغبراء وتخبط عشواء فى ليلة ظلماء .

يقول سيد الخلق وحبيب الحق : « **كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم** » ثم تلا قوله تعالى : ﴿ **أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون** ﴾ [العنكبوت : ٥١] .

إننى أخط هذه السطور والذكريات المجيدة تتزاحم أمامى فى موكبها المقدسة يوم وحد القرآن هذه الأمة ، وجمع شملها ، وقوى بنيانها ، وأزال مابها من شقاق ، ووقف بها على أركان المودة والوفاق : يوم كان المسلم يتنقل فى أسفاره فى بلاد ترفرف عليها راية التوحيد ، ويوم موت مكة ذراعيها إحداهما إلى قرطبة ، والأخرى إلى دلهى ، ويومها كان القرآن قد أزال الحواجز والموانع والفواصل ، كان المسلم فى تجواله وترحاله وهبوطه وصعوده من أقصى البلاد الإسلامية إلى أقصاها ، لم يكن يستوقفه شرطى يطلب منه جواز المرور أو تأشيرة الدخول والخروج ، لأن هذه الأرض التى كان يسير عليها أرض أشرق فيها نور التوحيد ، وارتفع عليها لواؤه ، ورفرفت فوقها رايته :

الله فوق الخلق فيها وحده　　　والناس تحت لوائها أكفاء

وإنى ليحزننى اليوم أن أرى الفرقة ضاربة أطنابها بين شعوب الأمة الاسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها ، فى الوقت الذى نسمع فيه هذا التصريح الخطير لأحد المسئولين فى اسرائيل والذى يقول فيه : إن لاسرائيل مطالب اقليمية ودينية فى أجزاء من الأرض التى احتلتها لأن إسرائيل قامت على ثلاثة مقومات :

١ - التوراة .　　　٢ - الشعب اليهودى .　　　٣ - أرض الميعاد .

فهل آن الأوان للأمة الإسلامية أن تنفض عن نفسها عوامل الشقاق والفرقة ، وتتنبه إلى ما يحيط بها من الخطوب المدلهمة ، والمحن القاسية القاتلة الفاجعة ؟!

أما آن لأمة القرآن أن تكرم هذا الكتاب وتستضىء بهديه ؟! وإذا نحن نقبنا فى بطون التاريخ واستقرأنا صفحاته ، لرأينا أن هذا الكتاب الكريم كان القوة التى تأخذ بيد المسلمين فى جميع الميادين ، وتدفع بهم إلى النصر المبين ، نعم : لقد استمسكوا بما جاء فيه ولزموه ورتلوا آياته وعملوا بها ، فكانوا فى سلمهم وحربهم صادقين مع كتاب الله .

كانوا فى سلمهم قرآنا يمشى بين الناس ، غزا القرآن قلوبهم بنوره ، وأضاء بيوتهم بكواكبه الدرية ، حتى كان المسلم إذا دخل بيته سألته زوجه : كم نزل اليوم من القرآن ؟ وكم حفظت من حديث رسول الله ﷺ ؟!

سؤالان تبادر بهما الزوجة عندما تفتح الباب لزوجها حتى لايفوتها شرف الوقوف على ما نزل من نور السماء ، ليتصل بأرض الصحراء ، فينبت فيها ويثمر ، ثم تقرن ذلك بالسؤال عما جاء على لسان البشير النذير محمد ﷺ من الهدى ، فقد علمهم

أستاذ الإنسانية الأكبر أن ينقلوا ما جاء عنه كما سمعوه منه ، ودعا لهم بالنضرة حيث يقول : « **نضر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها ، ثم أداها كما سمعها ، فرب حامل فقه ليس بفقيه** » .

كان المسلمون في حربهم – كما وصفهم قادتهم – فرسانا بالنهار ، رهبانا بالليل ، لهم دوي كدوي النحل . فكانت قوة الكتاب في صدورهم تبعث الرعب في قلوب أعدائهم ، وكان نور القرآن في أفئدتهم يضيء لهم الطريق إلى مكامن الأعداء . فيمكنهم من رقابهم ، حتى لقد وقف هرقل في مدينة أنطاكية أكبر مدن الإقليم الشرقي في الإمبراطورية الرومانية – وقف يلقي هذا السؤال الحائر على أسماع كبار قواد جيشه يلتمس منهم الجواب الشافي ، بعد ما فرغ صبره ، وغلا مرجل الغيظ في قلبه ، ثم انفجر قائلا لقواد جيشه : من هؤلاء الذين يحاربونكم ؟ أبشر أم ملائكة ؟ ويخيم الصمت الرهيب على قادة الرومان ، فيطلب منهم الجواب بصراحة ، فيقوم أحدهم فيقول : إنهم بشر ياسيدي ولكنهم يصومون النهار ويقومون الليل ، لايشربون الخمر ، ولا يلعبون الميسر ، نحمل عليهم فيصبرون ، ويحملون علينا فيصدقون ، أما نحن فنحمل عليهم فلا نصدق ، ويحملون علينا فلا نصبر ! .

فنفذ هذه الإجابة إلى سمع هرقل عظيم الروم ، وتتغلغل في نفسه ، فيرفع رأسه قائلا لقواده – والمرارة تملأ عليه أقطار وجدانه : لئن كانوا كما قلتم فليملكن موضع قدمي هاتين : ولقد كان ما قاله هرقل أمراً واقعاً : فلقد جاء اليوم الذي جعل فيه المسلمون من البحر الأحمر والبحر الأبيض بحيرتين صغيرتين تجريان في أرض الإسلام وترفرف عليهما راية القرآن ، فما السر في هذا ؟ لقد أخذ الله على نفسه وعداً – ووعد الله لايخلف – ﴿ **إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد** ﴾ [غافر : ٥١] . وأكد في كتابه هذا الوعد فقال : ﴿ **وكان حقا علينا نصر المؤمنين** ﴾ [الروم : ٤٧] . ثم بين كيفية هذا النصر وفصل لمن يكون ، فقال : ﴿ **إن الله يدافع عن الذين آمنوا ، إن الله لايحب كل خوان كفور . أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوي عزيز . الذين**

إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور ﴾ [الحج : ٤١] .

فوالله لو أكرمنا كتاب الله ما أهاننا أحد ، ولو لزمناه لرفرفت راية التوحيد خفاقة على كل بلد ! ياأمة الإسلام : إذا كان الكون قرآنا صامتا ، فإن القرآن كون ناطق فلتكونوا أنتم قرآنا يمشي بين الناس : يرشد الضال ، ويهدي .

لو نازلتنا لعلمناك كيف تكون الحرب ! لعلهم بذلك كانوا يريدون أن يبعثوا الحرب النفسية بسمومها لتفعل فعلها في صفوف المسلمين ، ولكن ما لبث القرآن الكريم أن حسم الموقف بقوة . وقصفه بعنف ، فهذا إنذار نزل به سفير الأنبياء جبريل عليه السلام ، يرد القرآن به على أولاد الأفاعي : ﴿ **قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم . وبئس المهاد . قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله ، وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين ، والله يؤيد بنصره من يشاء ، إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار** ﴾ [آل عمران : ١٢] .

إن ما فعله يهود بني قينقاع ، وما فعله بنو النضير وبنو قريظة من مؤامرات لاتخفى على أحد ، وما قام به عبد الله بن سبأ – اليهودي الذي تظاهر بالإسلام وقد كان رأس الفتنة التي اندلعت نارها بقتل الخليفة المفترى عليه ، عثمان ابن عفان رضي الله عنه ، وما جت الفتنة بعد مقتله موج البحر تأكل الأخضر واليابس ، والذي أثارها وأشعل نارها هو ابن سبأ ، ذلك الذي عشش الشيطان في رأسه ، فباض الفتنة وفرخ الشقاق والفرقة ، إنه من المتآمرين على أمة الإسلام ويصدق فيه قول الحق جل وعلا : ﴿ **لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا : اليهود والذين أشركوا** ﴾ [المائدة : ٨٢] .

ويمتد هذا العداء مع الأيام حيث تريد قوى الشر أن تطفئ نور الله بأفواها . إن الحقائق تثبت ، والوقائع تؤكد والتاريخ يشهد ، أن الصهيونية العالمية التي أقامت دولة إسرائيل في الشرق الإسلامي ، تريد أن تقف أمام الأمة الإسلامية شاهرة السلاح في وجهها . فلقد صرح الصحفي الصهيوني النمسوي « هيرتزل » قديما بتصريح قال فيه : إن قيام دولة لليهود في سوريا أو فلسطين تكون امتدادًا للحضارة الغربية ، وحصنا ضد الهمجية العربية ! .

إذا كان هذا التصريح قد مضى أكثر من نصف قرن ، فإنه بالعمل الدائب المستمر من جانب هذه القوى ، قد أصبح ما قاله « هيرتزل » أمرا واقعا . فقد قامت إسرائيل ، وقامت لليهود دولة .

ولست أنسى هذا الموقف لبعض قادة إسرائيل لما دخلوا بيت المقدس بعد الحرب الأخيرة في يونيو ١٩٦٧ حيث قال وهو في بيت المقدس : الآن نكون قد ثأرنا لأجدادنا في خيبر . وهذه الكلمة إنما تعرب عن نفس العطوت على الانتقام والثأر ، لا تعرف إلا سفك الدماء ، ولاتدين إلا بلغة المدفع : نفس لاتنسى الأحقاد ، ولا تتناسى البغضاء . .

ألا فلتعلم الأمة المسلمة أن عدوها ماكر وخبيث ، وعليها أن تتذكر قول النبي ﷺ : « **إن جبريل أخبرني أن أمتي مختلفة ، قلت : فما المخرج ؟ قال : كتاب الله . وهل هناك ما يعصم الأمة من الاختلاف إلا أن تعمل بكتاب ربها ؟** » إنه لنصح عظيم من رسول الله ﷺ ، وتوجيه كريم يريد أن يقدمه لكل من أراد أن يذكر ويعتبر ففي كتاب الله هذا النداء الخالد : ﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون . ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون . ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ، وأولئك لهم عذاب عظيم** ﴾ [آل عمران : ١٠٢ - ١٠٥] .

ألا فلتضع الأمة الإسلامية نصب عينيها هذه النصيحة النبوية الشريفة ، ففيها السعادة الأبدية . فإن الرسول الذى وصفه ربه بقوله : ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم** ﴾ والذى سأل عبد الله بن عمرو بن العاص عن وصفه في التوراة قال : والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن حيث قال الله عز وجل : « **ياأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرز للأميين . ولا صخاب في الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا لا إله إلا الله . فيفتح بها أعينا عميا ، وآذانا صما ، وقلوبا غلفاء** . .

هذا الرسول الذى ثبتت له هذه الأوصاف لما سأل جبريل عن المخرج من اختلاف أمته قال له : كتاب الله : .

نفسى لك الفداء يا رسول الله :

كيف ترقى رقيك الأنبياء	**ياسماء ما طاولتها سماء**
ـم يدانوك في علاك ، وقد	**حال سناً منك دونهم وسناء**
إنما مثلوا صفاتك للنا	**س كما مثل النجوم الماء**
ـت مصباح كل فضل فما	**تصدر إلا عن ضوئك الأضواء**

هو الأمى الذى علم المتعلمين ، واليتيم الذى بعث الأمل في قلوب اليائسين ، والهادى الذى قاد سفينة العالم الحائرة في خضم المحيط ومعترك الأمواج ، إلى شاطىء الله رب العالمين ، إلى مكارم الأخلاق وحميد السجايا ورفيع الشمائل فنادى في بشرية قائلا : « **إن في الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها . قالوا : لمن يارسول الله ؟ قال : لمن طيب الكلام وأدام الصيام . وأطعم الطعام وصل بالليل والناس نيام** » .

فاللهم ارزقنا اتباع هدى كتابك الكريم وسنة رسولك الحبيب حتى ننتصر على أعدائك أعداء الدين ونتبع صراطك المستقيم ففيه النجاة يوم الدين . وصلى الله وسلم على البشير النذير المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وأصحابه والتابعين .

القانون الإلهي العادل

ليس شيء أعظم في هذا الوجود من اتباع هدى الله ، والسير حسب تعاليمه ، كما قال جل شأنه : ﴿ **وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون** ﴾ [الأنعام : ١٥٣] .

ومصادر الهدى الإلهي قطعية الثبوت ، معصومة من الخطأ . وإذا كانت وسائل المعرفة مختلفة ، وطرقها متعددة : بعضها راجع إلى العقل ، وبعضها مبني على الحواس وبعضها طريقًا للوحي – فإن ما بني على العقل والحواس لا يفيد العلم اليقيني ، أما ما كان طريقه الوحي فإنه يقيني قطعي . .

ولقد نعى القرآن الكريم على الذين يتركون طريق الوحي متبعين غيره ، فقال : ﴿ **إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى** ﴾ [النجم : ٢٣] . ويقول . ﴿ **وما لهم به من علم ، إن يتبعون إلا الظن ، وإن الظن لا يغني من الحق شيئا ، فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا . ذلك مبلغهم من العلم ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بمن اهتدى** ﴾ [النجم : ٣٠] .

وإذا كان من المسلمات المنطقية أن العدد إما زوج أو فرد ، ومن المسلمات الهندسية أن مجموع زوايا المثلث تساوي زاويتين قائمتين ، وأن الخط المستقيم أقرب صله بين نقطتين ، فإن من مسلمات القرآن : هذا القانون الخالد . الأزلي الأبدي ، وهذه القضية العادلة التي حكم بها الله من يوم هبط آدم وحواء إلى هذا الكوكب وإلى يوم أن يرث الله الأرض ومن عليها : إن هذا القانون يوضحه هذا المشهد القرآني الحافل بألوان الجلال والعظمة ، المبين للخط الذي وقف على أوله آدم أبوالبشر ، والذي يقف على آخره الملك الموكل بالنفخ في الصور ، وإنه لخط ذو مواقف مختلفة ومراكز متنوعة ، وكأنه سلسلة متصلة الحلقات متشابكة الوقائع : يقول جل شأنه في شأن آدم : ﴿ **ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى . قال اهبطا منها جميعا ، بعضكم لبعض عدو . فإما يأتينكم مني هدى . فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فإن**

له معيشة ضنكا . ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى . وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾ [طه : ١٢٣ - ١٢٧] .

هذا قانون الله العادل الذي لايتخلف أبدا ، ولا مراء في صدقه ، وهذا حكم الله القادر ، ولا معقب لحكمه ، قوله الحق وله الملك : (فمن اتبع هداي فلا يضل ، ولا يشقى) ، وأين نعثر على هدى الله ؟ وكيف الوصول إلى هداه ؟ إن هذين السؤالين نجدهما قد أجاب عليهما القرآن إجابة صريحة واضحة :

ففي فاتحة الكتاب العزيز ندعو الله كل يوم سبع عشرة مرة على الأقل في صلاتنا قائلين : ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم** ﴾ [الفاتحة : ٦] وهذا أعظم سؤال وأرفع غاية . فأين نجد الهداية إلى الصراط المستقيم ؟ إن القرآن يجيب على هذا في سورة « البقرة » التي تلي سورة الفاتحة فيقول : ﴿ **الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ [البقرة : ٢] ، فالعثور على هذه الهداية في هذا الكتاب ، والوصول إليه بالوقوف على حيثيات هذا الحكم ، وهو في قوله تعالى : ﴿ **أولئك على هدى من ربهم . وأولئك هم المفلحون** ﴾ [البقرة : ٥] . وحيثياته تتجلى في قوله جل شأنه مبينا وصف المتقين بأنهم ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، وبالآخرة هم يوقنون** ﴾ [البقرة : ٤] .

إن اتباع هدى الله يكون باتباع وحيه المنزل على رسله ، ووحي الله المنزل على سيد المرسلين هو القرآن والسنة . قال ﷺ : « أوتيت القرآن ومثله معه » .

ولقد سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، رسول الله ﷺ ذات يوم فقال : يارسول الله إنا نسمع من يهود أحاديث تعجبنا ، أفنكتب بعضها ؟ قال أستاذ الأساتذة الأعظم : « **أمتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى ؟ لقد جئتكم بها بيضاء نقية . ولو كان أخي موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي** » ! فتأمل معي كيف كان اتباع الهدى باتباع شرع الله المتمثل في كتابه الكريم وهدى رسوله العظيم ، وإن في اتباع ذلك البعد عن الضلال والشقاوة : ثم ارجع البصر في قوله جل شأنه ﴿ **ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى** ﴾ وقارن بين الموقفين مقارنة

دقيقة تجد كيف كان الفرق شاسعا ، والبون بعيدا ، والهوة سحيقة . عندما تفضي بناظرك إلى الموقف الأول – وهو اتباع الهدى – تجد نفسك تنظر إلى قمة شماء ، تنخلع الرقاب عند ذراها . وعندما ينظر الإنسان إلى الموقف الثانى – وهو الإعراض عن ذكر الله – يشعر كأنه قد هوى إلى هوة سحيقة ، يتغلغل فى دوامة عنيفة ، أو كأنه يهيم فى ظلمات بعضها فوق بعض ، إذا أخرج يده لم يكد يراها . هذا لأن الله لم يجعل له نورا ، ومن كان شأنه كذلك فما له من نور : والنتيجة فى كل مختلفة . حيث لاضلال ولا شقاوة على من اتبع الهدى . وإنما هداية وسعادة فى الدنيا والآخرة : والنتيجة فى الموقف الثانى : المعيشة الضنك فى الدنيا ، وعمى وحيرة فى الحشر يوم يقوم الناس لرب العالمين . وهذا الجزاء .

فاللهم إنا نستعينك ونستهديك ، ونستغفرك ونتوب إليك ، ونؤمن بك ونتوكل عليك ونثنى عليك الخير كله ، نشكرك ولا نكفرك ، ونخلع ونترك من يفجرك ، اللهم إياك نعبد ولك نصلى ونسجد ، وإليك نسعى ونحفد . نرجو رحمتك ونخشى عذابك ، إن عذابك الجد بالكفار ملحق ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

صحف إبراهيم عليه السلام

فى مسيرتنا على طريق النجاة نسجل ذلك الحديث الجامع من التوجيهات والنصائح النبوية الشريفة : حيث وقف فيه أبو ذر موقف السائل المسترشد ، ووقف فيه المبعوث رحمة للعالمين موقف المجيب المرشد ، وإنا نسوق هذا الحديث إلى قارىء الكريم بطوله ، لما فيه من ألوان الجلال والعظمة : .

« عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قلت يارسول الله : ما كانت صحف إبراهيم؟ قال : « **كانت أمثالاً كلها ، أيها الملك المسلط المبتلى المغرور : إنى لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ، ولكنى بعثتك لترد عنى دعوة المظلوم . فإنى لا أردها . وإن كانت من كافر . وعلى العاقل – ما لم يكن مغلوباً على عقله – أن يكون له ساعات : فساعة يناجى فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يتفكر فيها فى صنع الله – عز وجل –، وساعة يخلو فيها لحاجاته من المطعم والمشرب . وعلى العاقل ألا يكون ظاعنًا إلا لثلاث : تزود لمعاد ، أو مرمة لمعاش . أو لذة فى غير محرم وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه ، مقبلاً على شأنه ، حافظاً للسانه . ومن حسب كلامه من عمله ، قل كلامه إلا فيما يعنيه** .. » قلت يارسول الله فما كانت صحف موسى – عليه السلام –؟ قال : « **كانت عبرا كلها : عجبت لمن أيقن بالموت ، ثم هو يفرح ! عجبت لمن أيقن بالنار ، ثم هو يضحك ! عجبت لمن أيقن بالقدر ، ثم هو ينصب ! عجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ، ثم اطمأن إليها ! عجبت لمن أيقن بالحساب غدا ثم لا يعمل** » .. قلت يارسول الله أوصنى ، قال : « **أوصيك بتقوى الله فإنها رأس الأمر كله** » ... قلت يارسول الله زدنى ، قال : « **عليك بتلاوة القرآن . وذكر الله – عز وجل –، فإنه نور لك فى الأرض ، وذخر لك فى السماء** » ... قلت : يارسول الله زدنى . قال : « **إياك وكثرة الضحك ، فإنه يميت القلب ويذهب بنور الوجه** » ..... قلت يارسول الله زدنى .. قال : « **عليك بالجهاد . فإنه رهبانية أمتى** » ... قلت يارسول الله زدنى . قال : أحب المساكين وجالسهم .. قلت يارسول الله زدنى ، قال : « **انظر إلى من هو تحتك ، ولا تنظر إلى من هو فوقك ، فإنه أجدر**

أن لا تزدرى نعمة الله » ... قلت يارسول الله زدنى . قال : « قل الحق وإن كان مراً » .. قلت يارسول الله زدنى . قال : « ليردك عن الناس ما تعلمه من نفسك ، وتجد عليهم فيما تأتى » .. ثم ضرب بيده على صدرى فقال : « ياأبا ذر : لا عقل كالتدبير ، ولا ورع كالكف ، ولا حسب كحسن الخلق » رواه ابن حبان والحاكم .

جزاك الله عنا ياسيدى يارسول الله خير ما جازى نبياً عن أمته ! حقاً : لقد بلغت الرسالة وأديت الأمانة ، وجاهدت فى الله حق جهاده ، وصبرت على البلاء ، وتحملت الضراء .

أرأيت يا أخا الإسلام إلى هذه المائدة النبوية الشريفة الحافلة بألوان الغذاء الروحى الذى يرق بالنفس من مدارج الكمال فى مداها إلى مسابح الأفلاك فى أبراجها ؟ ثم أسمعت كيف تدرج الصحابى مع الرسول من صحف إبراهيم إلى صحف موسى ، ثم وقف أمام المنهل العذب يسأل رسول الله ـ ﷺ ـ أن يوصيه ؟ ثم أرأيت كيف يستزيد رسول الله ـ ﷺ ـ فى الوصية ؟ إنها ساعة السعادة ولحظة العمر المباركة ! وهل هناك فى لحظات الحياة أسعد من أن يسأل الإنسان رسول الله ـ ﷺ ـ ؟!

ثم أرأيت إلى جوامع الكلم وإلى الحكمة تنساب من فم رسول الله ـ ﷺ ـ كالدر المنثور ، لتتألق أمام المسلم كأنها هالات النور ، ولينضوع من أريجها كأنها باقات العطور ، وليلقى الله بها كأنها أكاليل النور ؟!

انظر إلى الوصايا الخالده وكيف أن سيد الخلق وحبيب الحق يوصى – أول مايوصى – بتقوى الله . ثم يحكم على التقوى بأنها رأس الأمر كله ، وما التقوى إلا الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والرضا بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل . فهى كلمة جامعة مانعة : فمن اتقى الله خافه ، ومن خاف الله عرفه ومن عرف الله امتثل أوامره واجتنب نواهيه ومن خاف الله خافه كل شىء ، ومن لم يخف من الله خاف من كل شىء .

وإذا كانت مقومات التقوى أربعة ، وهى : خوف وعمل ، ورضا ، واستعداد ، ناسب ذلك أن يحافظ الإنسان على هذا الكنز الثمين ، بتلاوة القرآن العظيم وذكر الله الكريم . وليس الذكر كلمة تلوكها الألسنة ، أو تنبس بها الشفاه ، ولكنه وظيفة تتمثل فى سبعة أنحاء : فذكر العينين البكاء ، وذكر الأذنين الإصغاء ، وذكر اليدين العطاء ،

وذكر اللسان الثناء ، وذكر البدن الوفاء ، وذكر الروح الخوف والرجاء ، وذكر القلب التسليم والرضاء .

والذكر الصحيح مقرون بالتفكر . فالذكر بلا تفكر كلمات جوفاء . والتفكر بلا ذكر أعمال بطراء ولذلك جاء وصف أولى الألباب فى كلام الله تعالى مشتملا على الذكر والتفكر ، قال جل شأنه : ﴿ **إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم . ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ، ربنا ماخلقت هذا باطلا . سبحانك فقنا عذاب النار** ﴾ .

فالتقوى وتلاوة القرآن والذكر : كل أولئك طهرة للنفس ، وتزكية للقلب ، ونور للإنسان فى الأرض وذخر له فى الملأ الأعلى ، ليحيى فى مقعد صدق عند مليك مقتدر .

إن هذه المعانى لايلقاها إلا من اتبع رضوان الله ، وسار على هداه . وبهذه التعاليم نهضت أمة الإسلام تنهل من منابعه الصافية ، لتأخذ بحظ وافر من قيمه الباقية ومثله الرفيعة العالية . إنها قوة الدين وبشاشة الإيمان إذا تمكنت من القلوب تكاد تجعل المستحيل ممكنا ، والملح الأجاج عذبا فراتا سائغا للشاربين . .

فليت الذين ولو هذا تعليمات ظهورهم يقبلون على دين الله ويسيرون وراء هدى رسول الله ! وليت الغافلين عن هذه الحقيقة المرة ينفضون عن أنفسهم ثوب الكرى ! لقد قامت لليهود دولة سموها إسرائيل ، اسم دينى يجمع شتات المتفرقين من القارات الخمس . وكان أول من نادى بقيام هذه الدولة الصحفى النمسوي الصهيوني « هيرتزل » واعجب معى لهذا الحديث الذى دار بين اليهودى العجوز (بن جوريون) وبين هذا الأديب الأمريكى « هرمن ووك » والذى نشر فى كتاب تحت عنوان « هذا ربى » وقال بن جوريون للأديب الأمريكي يسأله : كيف يمكن لليهود أن يقاوموا الفنا فى العالم كله ؟ فأجاب الأديب الأمريكي قائلا : عن طريق الدين ، فقال بن جوريون : هذا هو الطريق الوحيد . .

فتأمل : كيف تلتقى هؤلاء المتفرقون المرذولون المشتتون ، وكيف أصبحت لهم وجهة واحدة ؟ وكيف تمسكوا بشىء واحد ؟ ما الذى جمعهم وقارب بينهم ؟ إنها التوراة !

لقد أحس اليهود أنه لا وطن لهم إلا هذا الكتاب ، ولا سياج لهم إلا هذا الكتاب ، وهم يهربون به ، ويهربون إليه . فما بالنا نحن المسلمين نهرب من كتابنا وهو خير كتاب جاء به خير نبي إلى خير أمة أخرجت للناس إذا تمسكت بالقرآن العظيم واتبعت هدى النبي الكريم وأمرت بالمعروف ونهت عن المنكر . .

ـ هذا هو طريق النجاة وصدق الله العظيم إذ يقول : **﴿ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ﴾** [آل عمران : ٢٥٦] .

فاللهم اجمع رايتنا بالقرآن ، ووحد صفوفنا بالقرآن واهدنا إلى طريق النجاة بهدى الحبيب المصطفى . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

طريق المسلمين الأوائل

لقد انحرفنا أيها المسلمون عن طريق الجادة والصواب وأصبحنا كالقصعة التى تتداعى الأكلة إليها ، ليس من قلة ولكن من كثرة كغثاء السيل . على حين أن هؤلاء اليهود المتفرقون الممزقون المشتتون أصبحت لهم وجهة واحدة وأمسكوا بشيء واحد هو التوراة جمعهم وقارب بينهم وأحس اليهود أنه لا وطن لهم إلا هذا الكتاب . وإنك أخى المسلم لتأخذك الدهشة ويستولى عليك العجب عندما تعلم أن عقيدة اليهود فى إسرائيل – التى يتجمعون حولها – هى قولهم : إن الدين الذى أبقى على الآباء والأجداد ، هو الذى يبقى على الأبناء والأحفاد! .

ولقد يزداد عجبك وتشتد دهشتك إذا مااطلعت على هذه الحقيقة المرة ، والتى توجد فى وسائل التربية والتعليم فى إسرائيل : فالطفل فى سن الثامنة يتعلم العبرية ، وفى سن الثانية عشرة يقرأ التوراة بالعبرية ، فإذا ما بلغ أربعة عشر عاما حفظ الحكم والأمثال من التلمود ! وجملة القول أن شذاذ الآفاق من الصهاينة والممزقين والمشردين وبغاث البشر المتفرقين فى أنحاء الأرض جمعتهم التوراة . وألف بينهم الدين ، وأقاموا لأنفسهم دولة فى الشرق الإسلامى لم يسموها دولة « وايزمان » . ولم يسموها مملكة « بن جوريون » أو غيره ، إنما سموها باسم نبى هو يعقوب بن إسحاق . سموها إسرائيل اسم دينى ، اجتمعوا تحت لوائه : لقدكانت الأحلام منذ عشر سنوات تراود « بن جوريون » أن يضع يده على شبه جزيرة سيناء ليجعل منها حدودًا آمنة لدولة الصهاينة : لقد تحولت هذه الأحلام إلى أمر واقع بقوة الحديد والنار : ولكن الكلمة الأخيرة لن تكون لمدفع إسرائيل ، وإنما ستكون لأهل الحق عندما يعتزون بدين الإسلام ويرفعون رايه التوحيد عالية خفاقة : هذا الدين الذى جعل سعد بن أبى وقاص يدخل القصر الأبيض – قصر كسرى – وينكت البساط بسهمه ويتلو قوله تعالى : **﴿ كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك أورثناها قوما آخرين ﴾** ثم يأمر بالأذان فى قصر الطغيان : فيقف المؤذن فى بهو من أبهاء القصر ، ويرفع الأذان إلى الله وتدوي كلمات التوحيد

إلى عنان السماء وكان في القصر نار تعبد من دون الله فها هو الأزان يعلن أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، وها هى النار تشهد على الذين عبدوها بالسفه والضلال ، وبقوة الإسلام وعزته تطفأ نار الشرك بعقيدة التوحيد .

إن سعداً هذا قبل أن يتحرك بالجيوش وقف بالمدينة أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب يقدم له ولجيشه النصح ، فماذا قال أمير المؤمنين فى نصيحته الغالية ؟ قال لسعد : ياسعد بن وهب : لايغرنك من الله أن قيل خال رسول الله وصاحب رسول الله ، فإن الله عز وجل لا يمحو السيء بالسيء ، ولكنه يمحو السيء بالحسن ، وإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته ، فالناس شريفهم ووضيعهم فى ذات الله سواء : الله ربهم وهم عباده ، يتفاضلون بالعافية ، ويدركون ماعنده بالطاعة ، فانظر الأمر الذى رأيت النبى ﷺ يفعله منذ بعث إلى أن فارقنا ، فالزمه ، فإنه الأمر : هذه عظتى إياك ، إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك وكنت من الخاسرين! .

وعندما تأهب للانطلاق إلى العراق بالجيش قال عمر لسعد :« إنى قد وليتك حرب العراق ، فاحفظ وصيتى ، فإنك تقدم على أمر شديد كريه لا يخلص منه إلا بالحق ،فعود نفسك ومن معك الخير ، واستفتح به ، واعلم أن لكل عادة عتادا ، فعتاد الخير الصبر ، فالصبر الصبر على ما أصابك أو نابك تجمع لك خشية الله واعلم أن خشية الله تجتمع فى أمرين : فى طاعته ، واجتناب معصيته ، وإنما أطاعه من أطاعه ببغض الدنيا وحب الآخرة ، وعصاه من عصاه بحب الدنيا وبغض الآخرة . وللقلوب حقائق ينشئها الله إن شاء ، فمنها السر ، ومنها العلانية : فأما العلانية فأن تكون حامدة أو ذامة فى الحق سواء ، أما السر فيعرف بظهور الحكمة من قلبه على لسانه وبمحبة الناس ، فلا تزهد التحبب فإن النبيين قد سألوا محبتهم ، وإن الله إذا أحب عبدا أحبه إلى خلقه ، فاعتبر منزلتك من الله بمنزلتك من الناس ، واعلم أن مالك عند الله مثل ما للناس عندك » .

ولما استعد الجيش للتحرك . وقف عمر رضوان الله عليه يوجه إليه نصائحه الفياضه بالإخلاص وقوة اليقين ونور الإيمان . فماذا قال ؟: قال رضى الله عنه : « إن الله تعالى ضرب لكم الأمثال لحيى بها القلوب ، فإن القلوب مية فى صدورها حتى يحيها الله . من علم شيئا فلينتفع به ، وإن للعدل أمارات وتباشير : فأما الأمارات فالحياء والسخاء واللين ، وأما التباشير فالرحمة . وقد جعل الله لكل أمر بابا ، ويسر لكل باب مفتاحا :

فباب العدل الاعتبار . ومفتاحه الزهد . والاعتبار ذكر الموت بتذكر الأموات ، والاستعداد له بتقديم الأعمال ، والزهد أخذ الحق من كل أحد قبله حق . وتأدية الحق إلى كل أحد له حق . ولا تصانع فى ذلك أحدا ، واكتف بما يكفى من الكفاف ، فمن لم يكفه الكفاف لم يغنه شيئا ! إنى بينكم وبين الله ، وليس بينى وبينه أحد ، وإن الله قد ألزمنى رفع الدعاء عنه ، فانهوا شكاتكم إلينا ، فمن لم يستطع فإلى من يبلغناها ، نأخذ له الحق غير متعتع» .

وبهذا النصح وتلك التوجيهات خاض « سعد » المعارك الحامية الوطيس ، وبنصر من الله توجوا كل المعارك . ولما أتم الله عليهم نعمة النصر . أرسل القائد المحرب والفاتح العظيم سعد إلى أمير المؤمنين عمر رسالة يبشره فيهابنصر الله ، تتقاطر نوراً ورحمة : قال سعد يصف الجنود والقواد .

« أمابعد ، فإن الله نصرنا على أهل فارس ، ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم بعد قتال طويل وزلزال شديد ، وقد لقوا المسلمين بعدة لم ير الراءون مثل زهائها . فلم ينفعهم الله بذلك ، بل سلبهم إياه ونقله عنهم إلى المسلمين واتبعهم المسلمين على الأنهار وعلى طفوف الآجام وفى الفجاج وأصيب من المسلمين فلان وفلان ، ورجال من المسلمين لا نعلمهم الله بهم عالم ، كانوا يدوون بالقرآن إذا جن عليهم الليل دوى النحل ، وهم آساد الناس لا يشبههم الأسود ، ولم يفضل من مضى منهم من بقى إلا بفضل الشهادة إذا لم يكتب لهم .

هذه كلمات قائد مجاهد فى سبيل إعلاء كلمة الله ، ورفع راية التوحيد ، انتصرلأنه آمن بالله إيمانا راسخا فصدق الله وعده حيث قال جل شأنه : ﴿ **وكان حقا علينا نصر المؤمنين** ﴾ [الروم : ٤٧] .

فإذا كان اليهود يعتقدون أن التوراة هى القلب الشديد الجذب الذى يجذب الضال ويجمع الشارد من حوله ، فالأولى بنا والأجدر بأمة الإسلام أن تجتمع القلوب حول الكتاب الحق . والإمام الذى يهدى النفوس الشاردة ، والأولى بنا والأجدر أن نلتف حول مأدبة الله ، حول مائدة القرآن العظيم : ﴿ **إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا** ﴾ [الإسراء : ٩] .

هذا هو طريق النجاة ، حيث لا طريق غيره ، إنه طريق الحق والخير والنور .

فاللهم اهدنا وسدد خطانا واجمع شملنا ، وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

إذا كان هؤلاء الصهاينة يتجمعون حول التوراة ويقاتلون باسمها — وهم قتلة أنبياء الله ، ومغيروا كتبه ، ومحرفواالكلم عن مواضعه — فأولى بنا وأجدر ، معاشر المسلمين ، أن نكون أمة قرآنية تتجمع حول القرآن وتتخلق بخلق القرآن ، وترفع راية القرآن عالية خفاقة ، فهو حبل الله المتين ونوره المبين ، والهادى إلى الصراط المستقيم . والناس من حيث القرآن أربعة أقسام ، تدور حول القراءة والعمل ، يذكرهم الرسول الكريم ، ويضرب لكل مثلا يأخذ بالألباب فيقول : **« مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأترجة : ريحها طيب ، وطعمها طيب ، ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التمرة : لا ريح لها ، وطعمها حلو ، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة : ريحها طيب ، وطعمها مر .. ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة : ليس لها ريح وطعمها مر »** .

إن التجمع حول القرآن هو تجمع بين أفئدة المسلمين لأنهم سيتعاملون من منطلق العقيدة الإيمانية التى تشع نورا يهذب نفوس الناس ويحسن أخلاقهم فالأمة القرآنية تتخلق بخلق الله وتتأدب بأدب رسول الله ﷺ القائل : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » والذى أخبرت عائشة عن خلقه فقالت : كان خلقه القرآن وقال صلوات ربى وسلامه عليه : « ليس شيء فى الميزان أثقل من حسن الخلق » ، وأعلنها فى سمع الزمان مدوية مجلجلة : «إنكم لن تسعواالناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم» .

أو ما رأيت إلى الرسول ﷺ يعلن هذه الحقيقة لأصحابه ذات يوم فيقول : **« ألا أخبركم بأحبكم إلى الله** قلنا : بلى يارسول الله ؛ قال : **أحبكم إلى خلقه »** ؟ .

ثم ألا سمعته وهو يكرس هذه الحقيقة فى قوله : **« حسن الخلق يذيب الخطايا كما يذيب الماء الجليد ، وسوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل »** .

واعلم ياأخى أن أحبنا إلى رسول الله ، وأقربنا منه مجالس يوم القيامة : أحاسننا أخلاقا ، الموطأون أكنافا ،الذين يألفون ويؤلفون . فالدين والأخلاق صنوان لاينقسم أحدهم عن الآخر .

سيدى أبا القاسم يارسول الله .

يامن له الأخلاق ما تهوى العلا ... منها وما يتعشق الكبراء
زانتك فى الخلق العظيم شمائل ... يغرى بهن ويولع الكرماء

يوم يقوم شأن الأمة على الدين والأخلاق ؛ سيرتفع بناؤها يناطح الجوزاء ، ويزاحم الشمس فى الجلاء ، ولن تستطيع أية قوة على وجه الأرض أن تنال منها أدنى نيل . ويوم تنفصم الأمة عن الدين وتجافى الخلق وتبعد عن الصراط المستقيم فلا بقاء ولا عزة ولا سلطان على الأرض .

ولقد صور الرسول ﷺ الصراط المستقيم تصويرا يدعو إلى التفكير المستمر ، فى حديث جامع قوى ، فقد روى ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **﴿ ضرب الله مثلا صراط مستقيما ، وعن جانبى الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة ، وعلى الأبولب ستور مرخاة وعندرأس الصراط داع يقول : استقيموا على الصراط ولا تعوجوا ، وفوق ذلك داع يدعو كلما هم عبد أن يفتح شيئا من تلك الأبواب قال ويحك ! لاتفتح ، فإنك إن تفتحه تلجه : ثم فسره ، فأخبر أن الصراط هو الإسلام وأن الأبواب المفتحة محارم الله ، وأن الستور المرخاة حدود الله فى قلب كل مؤمن ﴾** .

تأمل هذا الحديث الشريف ، وكيف يبين أن الإسلام ، وكتابة القرآن كلاهما يأخذان بيد الأمة إلى طريق النجاة ، والعزة والكرامة ، كما قال أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه **« لقد كنا أزلاء فأعزنا الله بالإسلام ، وإذا ابتغينا العزة فى غيرة أذلنا الله »** .

ما أعظمك ياسيدى يارسول الله وما أجمل بيانك حين تمثل المعنويات بالمحسوسات . وحين تشبه المعقلات بالأشياء المشاهدة : الصراط المستقيم هو الإسلام . والداعى عن رأسه هو القرآن . والأبواب المفتحة هى محارم الله ، والستور المرخاة هى حدود الله : إن الإنسان لو أوتى سحر البيان الذى تخر له العمالقه ، ومنح ريشة من الجنة ، وأعطى قدرة التصوير على التعبير : لوقف أمام هذا الحديث الشريف رافعا الراية البيضاء تسليما وإذعانا لصاحب البلاغة فى أعلى طبقاتها ، فقد وضح الأمر خير توضيح : إسلام لا إعوجاج فيه ، طريقه واضحة ، مناهجه قويمة مستقيمة ، مسالكه آخذه إلى طريق الرضوان والسعادة وروضات الجنان . فى أصول عقائد قوة ، وفى شعائر عبادته تزكية وطهرة . وفى مبادىء قوانينه رفعه وعظمة ، وفى قواعد نظامه سمو وإرتقاء ، وسنا ورفعة وسناء .

والقرآن لأيكف عن الدعوة والنداء داعيا إلى المنابع الربانية **﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ﴾** وقد وضح القرآن بجلاء حرمات الله وحدود دينيه . وفى اتقاء المحارم أرفع درجات العباذة ، كما قالأبو هريرة فى الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ أنه قال : **« من يأخذ منى هذه الكلمات فيعمل بهن أو يعلم من يعمل بهنّ »** قال أبو هريرة :قلت أنا يارسول الله ، فأخذ بيدى وعد خمسا ،قال :**« اتق المحارم تكن أعبد الناس ، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس ، وأحسن إلى جارك تكن مؤمنا ، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما ، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلبَ »** .

هذه مكانة محارم الله :من اتقاها كان أعبد الناس . . **﴿ ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ﴾** .

أرأيت كيف جمع الحديث الشريف فى كلماته بين الإسلام ومحارم الله وحدوده وقرآنه المجيد .

تلك هى معالم طريق النجاة : الاعتصام بحبل الله المتين وسنة رسوله الحبيب وجعلهما عقيدة ومنهاجا إلى يوم الدين . .

فالصلاة والسلام عليك يارسول الله يامن بعثت رحمة للعالمين وحددت لهم المناهج القويم ليسودوا به على العالمين . .

أثر العقيدة في حياة المسلم

يا أمة الإسلام : إن من القوانين العلمية المقررة التى لا تقبل الجدل : قول علماء الميكانيكا : لكل فعل رد فعل مساو له فى المقدار ،مضاد له فى الاتجاه . وإن هذا القانون يطبق على موقف المسلمين من اليهود ، فإذاكان اليهود يحاربون بعقيدة فإن حرب العقيدة لا تقابل إلا بمثلها ، أى حرب عقائدية : فإذا كان هؤلاء الصهاينة يتجمعون حول التوراة ويقاتلون بأسمها – وهم قتلة أنبياء ، ومغيرون كتبه ، ومحرفوا الكلم عن مواضعه – فأولى بنا أن نحارب عن عقيدة الإسلام ، رافعين راية القرآن : فبالعقيدة انتصرت جيوش المسلمين ، وبالعقيدة اندحرت جموع المعتدين ، وبالعقيدة لقد سعى بن معاذ أنسين النضر – وكان قد فاته شرف الجهاد يوم بدر فأقسم أن لا تفوته غزوة مع رسول الله ﷺ إلا وجاهد فيها – لقيه يوم هتف الداعى للجهاد ، يوم أحد ، وأعد الرسول العدة لقتال المشركين ، يومها لقى سعد أنس بن النضر وسأله : إلى أين ياأبا عمر ؟ فقال : واهاً : لريح الجنة ، والله إنى لأجد ريحها دون أحد ! ونزل البطل المغوار حومة الوغى ، وساحة القتال ، وطارت على شفرة سيفه رؤوس ملؤها الجبروت والظلم ، وهاج فى وسط المشركين كما يهيج الجمل الأورق ، وزائر فيهم زئير الأسود إذا ديس عرينها . وكان له شرف الاستشهاد فى هذا اليوم .

أتدرى يا أخا الإسلام كم كان فى جسده من الضرب ؟ لقد وجد فى جسده اثنان وثمانون ، ما بين ضربة بسيف ، وطعنه برمح ، ورمية بسهم ، حتى لقد شق عليهم أن يعرفوه من كثرة جراحه ، وما عرفته يومها إلا أخته : عرفته بثيابه وبنانه . .

فماذا كان موقف السماء من هذا الشهيد البطل الذى نزل أرض المعركة والقلب ملىء بقوة العقيدة ، والنفس تتشوق الى النعيم الأبدى حيث الروضات الباسمات ، والضياء والسكون المقيم ؟! لقد هبط سفير الأنبياء وكبير أمناء وحى السماء يجوب الآفاق ويطوى بأجنحته السبع الطباق . هبط على رسول الله ﷺ أمين الأرض والسماء ببرقية عزاء قرآنية عاطرة شيع بها روح الشهيد الطاهرة ، إنها قول الله تعالى :

﴿من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه : فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلاً﴾ [الأحزاب : ٢٣] .

فإذا ما لقبت يأخى بناظريك وبصيرتك هذه البرقية العلطرة الخالدة الفواحة بأريج الجنة ، رأيتها سجلت لهذا الشهيد وأمثاله من الشهداء الأبرار والأبطال الأطهار ، سجلت ثلاث صفات ، وقررت ثلاث سجايا من أكرم الشمائل وأطيبها وأطهرها هى الإيمان ، والرجولة ، والوفاء ! « من المؤمنين » هذا هو الإيمان ، « رجال » تلك هى الرجولة ، « صدقوا ما عاهدوا الله عليه» هذا هو الوفاء .

وبالعقيدة يرسل الرسول ـ ﷺ ـ زيد بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ ليتفقد سعد بن الربيع بين القتلى يوم أحد ليبلغه السلام من رسول الله ، إن كان على قيد الحياة ، فينادى زيد على سعد ، فيجده بين جراحه ، ودمائه الزاكية الطاهرة ، فيقول له : ياسعد : رسول الله يقرئك السلام ويقول كيف تجدك ؟ فيقول سعد : وعلى رسول الله السلام ورحمة الله ، أجد ريح الجنة ، ثم يقول سعد لزيد بن ثابت : أبلغ رسول الله منى السلام ، وقل له جزاك الله عن الإسلام خيرا ، ثم يؤكد هذا القول لزيد فيقول : بلغ أصحابك : ألا لا خير فيكم إن خلص إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وفيكم عين تطرف !!

فانظر إلى هذا الشهيد البطل وهو يودع هذه الدنيا ويستقبل دار الخلود والنعيم المقيم ، يودعها وقلبه مشغول برسول الله ، يودعها ولسانه يلهج بالثناء على رافع راية التوحيد ، يودعها وهو يوصى زيداً وأصحابه أن يكونوا آذانا صاغية ، وقلوباً واعية وجنداً يقظين حول رسول الله ـ ﷺ ـ يفدونه ويحمونه ويحافظون عليه .. وبروح العقيدة تستقبل أبواب الجنات سعد بن الربيع ليسلك مدارج الأنوار ، ويقف على حقائق الأسرار ، ويعيش فى جنات ونهر ، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر .

وبروح العقيدة نرى هذا الأعرابى يأتى فيبايع رسول الله ـ ﷺ ـ على الهجرة ويحضر يوم خيبر ، ويقسم له رسول الله ـ ﷺ ـ من الغنائم ، فيأبى أن يأخذ شيئاً ويقول لصاحب الرسالة العصماء : ما على هذا اتبعتك يارسول الله ، وإنما اتبعتك لأرمى بسهم فأقتل فأدخل الجنة ! ويأبى أن يأخذ من الغنائم ويرفض رفضاً قاطعاً . ويلخص اتباعه للنبى ـ ﷺ ـ فى كلمات ملؤها الإخلاص والوفاء والرضا ! لم يتبع النبى

ـ ﷺ ـ لدنيا يصيبها ، وإنما اتبعه ليموت شهيداً فيكون عند الله فى قوم ليسوا أمواتاً ، وإنما **﴿بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله . ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل ، وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين﴾** [آل عمران : ١٦٩ - ١٧١] .

فماذا كان رد الرسول - ﷺ - على هذا الأعرابى الذى دخل تاريخ الإسلام من أشرف أبوابه وأوسعها ؟ قال له سيدنا رسول الله - ﷺ -: « **إن تصدق الله يصدقك** » . وينزل ذلك الأعرابى المعركة بعدما صمتت الألسنة ، ونطقت الأسنة ، وخطبت السيوف على منابر الرقاب ، وأقدمت الرماح على الخطط الصعاب .. ثم يرى هذا الأعرابى وقد وقع شهيداً . فيؤتى جثمانه الطاهر إلى رسول الله - ﷺ -، فيسأل الرسول - ﷺ - : « **أهو هو ؟** » ، فيقال : نعم يارسول الله ، فيقول سيدنا رسول الله - ﷺ - : « **صدق الله فصدقه** » .

أرأيت كيف هانت الدنيا وهان ما فيها أمام قلب عرف الله فأحبه ؟ سبحانك ربى ! قطرة من فيض جودك تملأ الأرض رياً ، ونظرة بعين رضاك تجعل الكافر وليا .

لعمرك : ما الإنسان إلا ابن دينه   فلا تترك اتكالا على النسب
فقد رفع الإسلام سلمان فارس   وقد حط بالشرك النسيب أبو لهب

أرأيت كيف أن العقيدة تسير العوالم وتحرك الجبال الشوامخ ؟! إن ما ضربناه من أمثلة إن هو إلا غيض من فيض ، وجزء من كل ، وقطرة من بحر ، وسطر من قمطر ففى هذا الباب مراتب لا تحصى ، ومراق لاتستقصى ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر . إن شعاعاً من رضا الله يطفىء غضب ملوك أهل الأرض . وإن لحظة من غضبه تزهق الروح ، ولو انغمست فى نعيم الدنيا .

كيف كان هؤلاء : أبشر كانوا أم ملائكة ؟ كانوا بشر ، وذكر الله أنيسهم ، والتقة كنزهم ، والحزن رفيقهم ، والعلم سلاحهم ، والصبر دائهم ، والرضا غنيمتهم ، والزهد حرفتهم ، واليقين قوتهم ، والصدق شفيعهم ، الطاعة حسبهم ، والجهاد خلقهم ، وجعلت قرة أعينهم فى الصلاة ، فرضى الله عنه ورضوا عنه : **﴿وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، ذلك هو الفوز العظيم﴾** [التوبة : ١٠٠] .

فاللهم ثبت قلوبنا على دينك واعمرها باليقين والعقيدة الراسخة التى تجعلنا بحق خير أمة أخرجت للناس . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين بإحسان إلى يوم الدين .

بهذه الروح انتصر المسلمون

مازلنا نواصل معراجنا فى أرجاء العقيدة العالية الطاهرة الشريفة التى حققت النصر للمسلمين ، ورفعت راية التوحيد عالية خفاقة عبر العصور والأجيال وجعلت المسلمين سادة الأمم والشعوب بعقيدتهم اليقينية الراسخة . .

وها هو عبد الله بن حذافة يقف أمام قيصر الروم . فماذا قال لسان العقيدة وقلبها الجياش بنور اليقين ؟ ماذا قال هذا اللسان مترجما عن هذا القلب لملك الروم ؟ لنترك البيهقى وابن عساكر يرويان هذه الحادثة : عن أبى رافع قال : « وجه عمر بن الخطاب رضى الله عنه جيشا إلى الروم وفيهم رجل يقال له عبد الله بن حذافة من أصحاب النبى ﷺ ، فأسره الروم ، فذهبوا به إلى ملكهم ، فقالوا له : إن هذا من أصحاب محمد ، فقال له الطاغية : هل لك أن تتنصر وأشركك فى ملكى وسلطانى ؟ فقال له عبد الله : لو أعطيتنى ما تملك وجميع ماملكته العرب على أن أرجع عن دين محمد ﷺ طرفة عين ما فعلت قال : إذا أقتلك . قال أنت وذاك . فأمر به فصلب ، وقال للرماة : ارموه قريبا من يديه ، قريبا من رجليه ، وهو يعرض عليه ، وهو يأبى ، ثم أمر به فأنزل ، ثم دعا بقدر فصب فيها ماء حتى احترقت ، ثم دعا بأسيرين من المسلمين ، فأمر بأحدهم فألقى فيها وهو يعرض عليه النصرانية ، وهو يأبى ، ثم أمر به أن يلقى فيها ، فلما ذهب به بكى ، فقيل له إنه قد بكى ، فظن أنه جزع ، فقال ردوه ، فعرض عليه النصرانية فأبى . فقال :

ما أبكاك إذا ؟ قال : أبكانى أنى قد قلت فى نفسى : تلقى هذه الساعة فى هذه القدر فتذهب ، فكنت أشتهى أن يكون بعدد كل شعرة فى نفسى تلقى مثل هذا فى الله ! قال له الطاغية : هل لك أن تقبل رأسى وأخلى عنك ؟ قال له عبد الله : وعن جميع أسارى المسلمين ؟ لا أبالى ! فدنا منه فقبل رأسه ، فدفع له الأسارى . فقدم بهم على عمر رضى الله عنه ، فأخبر عمر بخبره ، فقال عمر : حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة ، وأنا أبدأ ، فقام عمر ، فقبل رأسه » .

حقا إنها العقيدة الراسخة التى جعلت الباطل يذعن أمام الحق واعتز أصحابه به بالثبات على مبدأ ، إنهم خريجوا مدرسة محمد ﷺ التى تخرج منها المصلح العظيم كأبى بكر والزعيم الملهم : كعمر ، والحيى الكريم : كعثمان ، والعبقرى الفذ : كعلى ، والمفتى الخبير كابن عباس ، والمدرس القدير : كابن عمر ، والقائد الجبار كخالد ، والزاهد الجليل : كأبى ذر ، والمحدث الكبير : كأبى هريرة ، والفقيه الورع كابن مسعود ،والبطل المغوار : كالزبير ، والفاتح العظيم : كسعد ، والحكيم البارع : كسلمان .

إنهم أصحاب محمد الذين قال الله فيهم : **﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار . رحماء بينهم ، تراهم ركعا سجدا ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود . ذلك مثلهم فى التوراة ، ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه ، يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما ﴾** [الفتح : ٢٩] .

بهذه الروح انتصر المسلمون ، وبها كانوا دائما حملة مشاعل الهدى . لا تواكل ولا تكاسل ، ولا فرقة ولا تخاذل ، وإنما عمل دائب وجهاد

مستمر : عرفوا للزمان قيمته ، حتى إذا جاءهم النذير بأن هناك خطر داهمايوشك أن ينزل بهم ، استعدوا ووزنوا الزمان بأدق من ميزان الذهب ، فصاروا مطمئنين ،وعلموا أن الطائفةالتى تكذب الإنذار سوف ينامون الليل ، حتى إذا ما ذهبت السكرة ، وحلت الفكرة ، وانفض السوق ، ندموا ، ولات ساعة مندم : ألا فلتعلم البشرية أن منطق دنيا الناس مبنى على القوة ، وأن الضعفاء لا مكان لهم على موائد الأقوياء ، فإذا لم نعمل بهذا النصح الغالى الذى وجهه إلينا سيدنا رسول الله ﷺ فى قوله : **« مثلى ومثل مابعثنى به كمثل رجل أتى قوما فقال لهم : لقد رأيت الجيش بعينى وأنا فجوا ، وكذبته طائفة فصبحهم الجيش فاجتحهم »** .

إذا لم نعمل بهذا النصح فلا نلك من إلا أنفسنا . فقوله صلوات ربى وسلامه عليه :(رأيت) ـ ثم بعد ذلك (بعينى) . ولا تكون الرؤية إلا بالعينين . ثم قوله **« وأنا النذير العريان »** ولا يخلع النذير ثيابه إلا إذا كان الخطر شديدا ، والخطب فادحا ،

والمحن مدلهمة . والناس أمام هذا الإنذار فريقان : فريق استغل الوقت استغلالا طيبا فساروا أول الليل لكى لايفوتهم ركب السير ، فنجوا ، ولم يستطع العدو أن يدركهم بقوته ، لأنهم أخذوا الأهبة واستعدوا الاستعداد كله ، وأما الطائفة المكذبة فإنهم ناموا وأخذت أطياف الكرى تغزو أجفانهم ، وأخلدوا إلى الراحة والكسل ولم يعد للأمر عدته ، ولا تأمن مكر الأعداء .

لقد أكد الرسول ﷺ هذا المعنى عندما نادى على القبائل وهو فوق الصفا : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا وراء هذا الوادى تريد أن تغير عليكم ،أكنتم مصدق ؟ قالوا : نعم والله ما جربنا عليك كذبا ، فقال :« **إنى رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة** » . ثم إن الرسول وهو يدبج بيانه هذا يؤكد صدق قوله فيقول لهم :« **إن الرائد لا يكذب أهله** » : وحاشاك ياسيدى يارسول الله أن يتطرق الكذب إلى كلامك .

ثم يكرس الرسول ﷺ هذه الحقيقة ويرسى دعائم هذه المبادىء فيقول :« **والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءا ، وإنها لجنة أبدا أو لنار أبدا** » .

إن مواكب الذكريات الخاشعة تنادى : أن أجيبوا داعى الله وآمنوا به ، وتذكر أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها : اليقظة بدل الغفلة ، وبعث روح الحذر إذا حاول الإهمال أن يدب فى النفوس : لقد قامت إسرائيل على مسمع من الدنيا واجتمعت الأمم ، وانفضت مرات ومرات . وإسرائيل تبنى وتشيد : اجتمعوا بحجة الحفاظ على السلم ! وهل حفظ السلم .

وهل رفع الحق الذليل جبينه ؟ — وهل نحن بتنا لا يروعنا الظلم ؟
سمعنا كلاما لذ فى السمع وقعه — ورب لذيذ شاب لذته السم
أمانى كالأحلام : زخرفها الكبرى — وقل على الأيام أن يصدق الحلم
أرى الدول الكبرى لها الغنم وحدها — وقد عادت الصغرى على رأسها الغرم
متى عفت الذئبان عن لحم صيدها — وقد أمكنتها من مقاتلها البهم
كل شعب : ضائع حقه سدى — إذا لم يؤيد حقه المدفع الضخم

ياليت قومى يعملون بأن نداء رسول الله ﷺ يجب أن يأخذ طريقه إلى الآذان يدوى ويجلجل ويقول : « **لقد رأيت الجيش بعينى وأنا النذير العريان** » .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القرآن يحذر عن انحراف القوى النفسية

لما كان الإنسان كثيرا ما تمر به الأوامر والنواهى والتذكرة والمواعظ ، ثم ينسى ، فإن الكتاب العزيز عالج هذه الناحية فيه ، فذكر كثيرا ونبه وأرشد : وبين نيران الوعيد ونور الوعد يسلط القرآن الكريم أضواءه ليحذر من النار ويبشر بالجنة ، ولقد كان السلف الصالح رضوان الله عليهم تتجافى أصلابهم على أجزاء من القرآن فى جوف الليل ، كلما مر أحدهم بآية تبشر بالجنة بكى شوقا إليها ، وإذا مر بآية تنذر بعذاب شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه ؟ هكذا نظر الله إليهم فى جوف الليل ﴿ **كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون . وفى أموالهم حق للسائل والمحروم** ﴾ [الذاريات : ١٩] .

إذا كان فلاسفة الأخلاق يتكلمون عن القوى الغضبية والشهوانية والعقلية ، ويتكلمون عن أمهات الفضائل . وهى العدل والشجاعة والعفة والحكمة . ويجعلونها تدور حول هذه القوى ــ فاعتدال قد ينشأ عنه فضيلة العفة . واعتدال القوة العقلية بالرذائل : فالقوة الغضبية قد تنحرف فتنشأ عنها رذيلة التهور ، والقوة الشهوانية قد تنحرف فتنشأ عنه رذيلة الإعتداء على الأعراض ، والقوة العقلية قد تنحرف فتنشأ عنها رذيلة العبث .

ولقد بين القرآن الكريم نتيجة انحراف القوى ، فقرن بين الجرائم التى قد تنشأ عن انحراف القوى وجرحها فى سلك الكبائر التى نهى الله عنها وحذر من قربها . فترى القرآن الكريم يقرن بين جريمتى القتل والزنا ، وهما ناشئتان عن انحراف القوى الغضبية والشهوانية ، يقرن بينهما فى ثلاثة مواضع .

أولها : فى سورة الأنعام فى قوله تعالى :﴿ **ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق** ﴾ [الأنعام : ١٥١]

وثانيها : فى سورة الفرقان حيث يقول سبحانه وتعالى :﴿ **واللذين لا يدعون مع الله إلـها آخر . ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون** ﴾ .

وثالثها : فى سورة الفرقان حيث يقول سبحانه وتعالى : ﴿ **والذين لايدعون مع الله إلها آخر ،ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون** ﴾ .

أما القوة العقلية ففى اعتدالها فضيلة الحكمة ، وفى انحرافها رذيلة العبث ، وإنما ينحرف العقل عندما يستعمل فى غير ما خلقه الله له ، حيث يضرب ويخبط فى مجال لايعرف حقيقته ولا أوله ولا آخره ، كما حدث لبعض الفلاسفة الذين أجهدوا عقولهم بغية الوصول إلى حقيقة الغيب – أو ما يسمونه بما وراء الطبيعة – فكانوا إلى الوثنية أقرب وعن الحقيقة أبعد مما بين السماء والأرض ، لأن محيط ما وراء ما وراء الطبيعة أعنف من أن يمخر عبابه سباح ماهر .

ولذلك جاء الحديث محذراًمن هذا : يقول رسول – الله ﷺ – :« **تفكروا فى آلاء الله ، ولا تفكروا فى ذات الله فتهلكوا** » .

روى عن الإمام الشافعى رضى الله عنه قال :« **ما جهل الناس ، ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان أرسطوطاليس** » .

لقد أراد « أرسطو » أن تخضع الطبيعة ، وما وراء الطبيعة للسان البشرى ، فأبدع كل الإبداع تنسيقا وانسجاما ، وأحمق صدقا واتجاها ، فكان مثله كمثل اللوحة الزائفة البراقة ، والسراب الخادع ، فقاد الإنسانية إلى انحراف هائل ، وإلى اضطراب فى الفكر وفى العقيدة لا حد له .

ولا ريب أن الإنسان منذ أن وجد معه روح من أمر الله وهو الوحى : يرشده ويهديه ويبين له المبادىء والقواعد فى المسائل التى لا يصل إليها تفكيره البشرى إلى حل فيها ، وهى مسائل ما وراء الطبيعة ، والإنسان عموما يفكر فى الوحى ، يريد أن يعرف العلل والحكمة ، ويريد أن يصل إلى السر ويكتنه الغايات : ولكن ما أجل قوله تعالى : ﴿ **عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا . إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا . ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شىء عددا** ﴾ : فعالم الغيب إنما هو حجر محجور بالنسبة للعقل البشرى ، وتقدس عالم الغيب عن أن يمسك بمفتاحه ، أو يكشف عن مساتيره ، إلا من أذن له الله من نبى مكرم أو من رسول مأذون .

إن نظرة يسيرة فى موقف « أرسطو » فيما وراء الطبيعة وفى جواب الصديق رضى الله عنه يبين لنا مدى إخفاق أحدهما وجدية الآخر : فأرسطو استعمل العقل فى غير مجاله ، وأبو بكر الصديق رضى الله عنه يسأل : بم عرفت ربك ؟ فيقول : عرفت ربى بربى ، ولولا ربى ما عرفت ربى ! قيل : فكيف عرفته ؟ قال : العجز عن الإدراك ، إدراك ، والبحث فى ذات الله إشراك .

وما أجمل ما قاله على رضى الله عنه حين قال : إن كانت العيون لا تراه بمشاهدة العيان ، فإن القلوب تدركه بحقيقة الإيمان سبحان ربى لا يدرك بالحواس . ولا يقاس بالناس ، فوق كل شىء وليس تحته ، وهو فى كل شىء لا كشىء ﴿ **ليس كمثله شىء وهو السميع البصير** ﴾ [الشورى : ١١] .

فما أجمل وأروع وأعظم وأحكم وأسلم هذه العقول التى عرفت لكل شىء قدره ، فأصدرت حكمها عدلا وصدقا ! وقد سأل بعض الماديين الإمام أبا حنيفة رضى الله عنه فقال : هل أبصرت ربك ؟ قال الإمام : سبحان ربى ! لا تدركه الأبصار . قال : هل أحسسته بأحد حواسك ؟ قال الإمام : سبحان ربى ! ليس كمثله شىء . فقال السائل : فإذا لم تكن أحسسته ولا أبصرته : فمن أين تثبت أنه موجود ؟ قال الإمام : ياهذا : هل أبصرت عقلك ؟ قال : لا ، قال : لا قال الإمام : أأنت عاقل أم مجنون ؟ قال له : أنا عاقل . قال الإمام : فأين عقلك ؟ قال : موجود ، قال الإمام : كذلك الله جل جلاله موجود .

وهكذا تتبين الفصاحة والحكمة فى مثل هذه المجالات التى تحتاج إلى استعمال المنطق السديد والرد الرشيد :

يقولون : أين الله أين عجائبه ؟ وذا الكون سفر ناطق وهو كاتب
يشكون والإيمان ملء قلوبهم ولكن جهل المرء لا شك غالب

كذلك يريد الإسلام من العقل أن ينتج للناس فى شتى العلوم الكونية ما يعود على البشرية من نفع . فاسألوا التاريخ عن أمجاد الإسلام : عن علم الضوء والبصريات لابن الهيثم ، وعن مكتشف الدورة الدموية وهو ابن النفيس ، وعن كيمياء بن حيان ، ورياضة الخوارزمى ، وطب ابن سيناء ، وعلم الحيوان والنباتات للجاحظ ، والتفاضل

والتكامل لثابت بن قرة ، والفلك للبتاني : اسألوا التاريخ عن هذه الأمجاد ، وكيف سطعت في سماء العلا ؟ إنهم خريجو مدرسة الإسلام العظمى الذين طلعوا كالكواكب الدرية تضيء للناس في لجج البحار .

اللهم وفقنا لما تحبه وترضاه ، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القرآن طريق العصمة من خطوات الشيطان

طريق القرآن معصوم ، لأنه : ﴿ **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** ﴾ [فصلت : ٤٢] ، وقد شهد للقرآن أعداؤه شهادة إنصاف للحق فها الوليد عظيم مكة يسمع من الرسول ﷺ آيات بينات فيقول : لقد سمعت من محمد كلاماً ما سمعت مثله قط : إن له حلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله مغدق ، وإنه يعلو ولا يعلى عليه .

ويقول المستشرق « مار مديوك بكسال » : يكفي الإسلام عظمة أن أصحابه ظلوا اثني عشرة سنة في اضطهادوتعذيب بين فكي الأسد ، ومع ذلك كانوا يزيدون ولا ينقصون ! ويكفي كتاب الإسلام جلالاً أنه مضى عليه أربعة عشر قرناً من الزمان لم يصب أسلوبه بجفاف ، بل ظل غضاً ندياً كأن عهده بالحياة أمس .

وهكذا تنطق الأفواه للشمس بأنها مصدر النور والحرارة ، لاينكر ذلك إلا جاحداً أو مكابر ونبي الإسلام الذي جاء بهذا الكتاب المعصوم فهو معصوم أيضاً ، وقد شهد له الأعداء أيضاً شهادة حق لن يستطيعوا يغيروا أو يبدلوا فيها : فها هو أبو سفيان بن حرب ــ قبل أن يدخل الإسلام ــ يعقد « هرقل » عظيم الروم معه اجتماعاً طارئاً للنظر في شأن نبي الإسلام يسأله عن كل ما يتصل به ، فماذا ، كانت الأسئلة ؟ وكيف كانت الإجابة .

أنتقل بكم الآن إلى البلاط الروماني القيصري لنحضر هذا الاجتماع عن الطبيعة ، ووكالات الأنباء التي أذاعت هذا الاجتماع غاية في قوة التصديق ، فإنها وكالات الإمام البخاري .

« عن عباس رضي الله عنهما أن أبا سفيان أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش وزكانوا تجاراً بالشام في المدة التي كان الرسول ﷺ مادا فيها أبا سفيان وكفار قريش ، فأتوه وهم بإيلياء ، فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم ، ثم دعاهم ودعا بالترجمان فقال : أيكم أقرب نسباً لهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ؟ قال

أبو سفيان : فقلت أنا أقربهم نسبا ، قل لهم إني سائل هذا الرجل ، فإن كذبني فكذبوه ، فوالله لولا أن يؤثروا على كذبا لكذبت عليه ، ثم كان أول ماسألني عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟ قلت : هو فينا ذو نسب . قال : فهل قال هذا القول أحد منكم ؟ قط قبله ؟ قلت : لا . قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟ قلت : لا . قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت بل يزيدون . فهل يرتد أحد منهم سخطا لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ قلت : لا . قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول مال قال ؟ قلت : لا . قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا : ونحن لا ندرى ما هو فاعل فيها ، قال : ولم يمكنني كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة . قال : فهل قاتلتموه ؟ قلت : نعم قال : كيف قتالكم إياه ؟ قلت : الحرب بيننا وبينه سجال . ينال منا وننال منه . قال : بماذا يأمركم ؟ قلت : يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا ، واتركوا ما يقول آباؤكم ، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة . فقال للترجمان : قل له سألتك عن نسبه فزعمت أنه فيكم ذو نسب ؛ وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها ؛ وسألتك : هل قال أحدمنكم هذا القول قبله لقلت رجل يقول قيل قبله ؛ وسألتك : هل كان من آبائه من ملك ؟ لقلت رجل يطلب ملك أبيه . وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فذكرت أن لا ؛ فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على لله ؛ وسألتك : أشرف الناس اتبعوه ضعفاؤهم ؟ فذكرت أن ضعفاؤهم اتبعوه وهم أتباع الرسل ؛ وسألتك : يزيدون أم ينقصون ؟ فذكرت أنهم يزيدون ؛ وكذلك أمر الإيمان حتى يتم .وسألتك : أيرتد أحد منهم سخطا لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فذكرت أن لا ؛ وكذلك الرسل لا تغدر ؛ وسألتك : بم يأمركم ؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وينهاكم عن عبادة الأوثان ؛ ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف والصلة ، فإن كان ما تقول حقا فسيملك موقع قدمي هاتين ، وكنت أعلم أنه خارج ، وما كنت أظن أنه منكم ، فلو أعلم أني أخلص له لتجشمت لقائه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه .

ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذى بعثه مع دحية رضى الله عنه عظيم بصرى فدفعه إلى « هرقل » فإذا فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإني أدعوك

بدعاية الإسلام ، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الاريسيين . وياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم : أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا و لا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون .

قال أبو سفيان : فلما قال ما قال ، وفرغ من قراءة الكتاب ، كثر عنده الصخب ، وارتفعت الأصوات وأخرجنا ، فقلت لأصحابي حين خرجنا ، لقد بلغ من أمر ابن أبي كبشة أنه يخافه ملك بنى الأصفر ، فما زلت موقنا أنه سيظهر حتى أدخل الله على الإسلام .

إن هذا الحوار الذى دار بين « هرقل » و« أبي سفيان » أيام كان أبو سفيان على الشرك تردد بين عدوين للرسول محمد وللإسلام ، وقد قالوا : « الحق ماشهدت به الأعداء » . إنه حديث لا يصلح أن تلوكه الألسنة أو تتحرك به الشفاه دون أن تسبر غوره ، وتتعمق في مكنون سره ، فإنه يعتبر وثيقة تاريخية خالدة ، ما تعاقب الملوان واختلف الجديدان .

إنها عشرة أسئلة رد عليها بعشرة أجوبة . ثم تبعتها نتيجة من « هرقل » : لو كان يستطيع أن يخلص إلى رسول الله ﷺ لتجشم الوصول إليه ليغسل عن قدميه : فاقرأ هذه الوثيقة مرة ومرة فإنها تفيق وشخصية لأعظم إنسان عرفه العالم وهو محمد بن عبد الله ﷺ : ولنبى الإسلام شهد الكاتب الإنجليزى « برناردوشو » شهادة لخصت مقاييس العظمة في سيدنا رسول الله ﷺ . قال « شو » : لو كان محمد بن عبد الله بيننا في القرن العشرين لحل مشاكل العالم ريثما يتعاطى فنجانامن القهوة .

ما ثمة أدنى شك في أن طريق القرآن معصوم من الزلل والخطأ ، وأن النبي الذى جاء بالقرآن معصوم قال سبحانه :**﴿ قد جائكم من الله من نور وكتاب مبين . يهدى به الله من اتبع رضوانه السلم السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه . ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾** . [المائدة : ١٦] ، ونظرة في كتاب الله . وفي أوائل سورة بالذات ـ تجعلك تقف أمام محرابه وقد أخذتك الدهشة واستولى عليك العجب فتارة تذكر أوائل السور وصفا لهذا الكتاب ، وتارة أخرى وصفا لله الذى أنزل هذا الكتاب . وإليك التطبيق لهذه القاعدة .

يقول الله فى شأن هذا الكتاب : ﴿ **ذلك الكتاب لاريب فيه . هدى للمتقين** ﴾ [البقرة : ٢] ، ويقول فى وصف ذاته الأقدس — وهو الذى نزل عليك الكتاب بالحق ويقول فى وصف الكتاب : ﴿ **تلك آيات الكتاب الحكيم** ﴾ [يونس : ١] ، وفى وصف الكتاب ومنزله : ﴿ **كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير** ﴾ [هود : ١] ، وفى وصف الكتاب : ﴿ **تلك آيات الكتاب المبين** ﴾ [يوسف : ١] ، وقال : ﴿ **تلك آيات الكتاب ، والذى أنزل إليك من ربك الحق** ﴾ [الرعد : ١] ، وقال : ﴿ **كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور** ﴾ [إبراهيم : ١] ، وقال تعالى : ﴿ **تلك آيات الكتاب وقرآن مبين** ﴾ [الحجر : ١] . وقال تعالى : ﴿ **الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا . قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا** ﴾ [الكهف : ٢] ، وقال تعالى : ﴿ **تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا** ﴾ [الفرقان : ١] ، وقال جل شأنه : ﴿ **تلك آيات الكتاب الحكيم . هدى ورحمة للمحسنين** ﴾ [السجدة : ٢] ، ثم يؤكد مصدره فيقول فى أول سورة السجدة : ﴿ **تنزيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين** ﴾ وفى سورة [يس] **يصفه بالحكمة فيقول** : ﴿ **يس . والقرآن الحكيم** ﴾ [يس : ١] ، وفى سورة [ص] يصفه بأنه صاحب الذكر فيقول : ﴿ **ص . والقرآن ذى الذكر تنزيل الكتاب** ﴾ وفى سورة غافر يصف من أنزله بالعزة والعلم : ﴿ **تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم** ﴾ . وفى سورة [فصلت] يصف من أنزله بالرحمة المطلق ﴿ **تنزيل من الرحمن الرحيم** ﴾ وفى سورة [ق] يصفه بالمجد فيقول : ﴿ **ق . والقرآن المجيد** ﴾ . وفى سورة [الرحمن] يمتن على عباده بأعظم منة وهى تعليمهم القرآن حتى يلغمن أعظم هذه النعمة أن قدمها فى الذكر على خلق الإنسان قال سبحانه : ﴿ **الرحمن . علم القرآن . خلق الإنسان . علمه البيان** ﴾ وفى سورة [الجن] يأتى الموقف الرائع والمشهد البديع حيث تلتف الجموع الغفيرة من الجن لتستمع إلى القرآن الكريم فينزل منها منزل قطرات الندى على الزهرة الظمأى ، يتقاطر نوراً ورحمة ، بم وصفوه ؟ قالوا : إنا سمعنا قرآنا عجبا . يهدى إلى الرشد ، فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحداً .

ولقد كان لهم شرف حمل الدعوة إلى قومهم بعد أن أعطوا هذا الكتاب حقه من

حسن الاستماع والتأدب فى مجلسه ، فهلموا من مأدبة الله الكريم ما استطاعوا قال جل شأنه : ﴿ **وإذصرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن: فلما حضروه قالوا أنصتوا. فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين قالوا ياقومنا إنا سمعنا كتاباأنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه. يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم . يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم** ﴾ [الأحقاف ٣١] .

فاللهم اجعل القرآن العظيم ، ربيع قلوبنا ونور صدورنا واجعله الهادى لنا إلى الصراط المستقيم وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

القرآن وأثره في سلوك المسلم

تحدثنا فى المقال السابق عن عظمة القرآن الكريم وكيف وصف الله كتابه بصفات كثيرة تدل على عظمة منزله وامتن الله علينا فى آيات عديدة بأعظم منه وهى تعليمنا ذلك القرآن عن طريق رسوله الحبيب .

ونواصل حديثنا فنقول ـ وبالله التوفيق ـ إذا ما نظمت هذه الصفات للكتاب الكريم فى عقد فريد رأيتها فى مجموعها تحكم له بالحكمة والذكر والمجد والاحكام والهدى والبشرى والرحمة وإخراج الناس من الظلمات إلى النور ، ورأيت هذه الآيات فى فواتح السور تربط بين صفات الله تعالى وصفات كتابه الكريم ، وتصف الله بصفات الكمال التى تليق بذاته الأقدس ، وتحكم بأن تنزيل الكتاب ـ أن الكتاب المنزل من عند الله ، الموصوف بأنه الحى القيوم ، وبأنه العزيز الحك يم ، فإذا كانت هذه الصفات صفات الكمال ، وجمعت للكتاب نفسه هذه الصفات الكريمة ، فضلا عما احتوته الآيات البينات إذا ماغصت فى بحار القرآن .

إنه أمر لا يحصيه عد ، ولا يحيط به حد : فالله قوله الحق ، والقرآن كلام الله ، الواجب له كل ما يليق بذاته ، والله نور السموات والأرض ، والقرآن نور :﴿ **ياأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا** ﴾ [النساء : ١٧٤] ، والرسول ﷺ نور : ﴿ **قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين** ﴾ [المائدة : ١٦] .

فمن سلك هذا الطريق جعل الله له نورا فى قلبه ، ونورا فى سمعه ، ونورا فى بصره ، ونورا فى عظمه ولحمه ، وجعل من فوقه نورا ، ومن تحته نورا ، ومن أمامه نورا ، ومن ورائه نورا ، وعن يمينه نوراً ، وعن شماله نورا ، وبالجملة أصبح ربانيا وقرآنا يمشى بين الناس . قال تعالى :﴿ **ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون** ﴾ [آل عمران : ٧٩] .

ومن ترك هذا الكتاب زلت قدمه ، وتسلط عليه شيطانه : ﴿ **ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين . وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون** ﴾ [الزخرف : ٣٦] . وتنقلب هذه الصداقة التى كانت بينه وبين الشيطان فى الدنيا إلى عداوة بغيضة فى الآخرة : ﴿ **حتى إذا جاءنا قال يا ليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين** ﴾ [الزخرف : ٣٨] . لأن كل صداقة تقوم فى الدنيا على غير معرفة الله تنقلب إلى عداء يوم القيامة : ﴿ **الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين** ﴾ [الزخرف : ٦٧] .

ولذا قال رسول الله ﷺ :« خير الأصحاب من إذا ذكرت الله أعانك ، وإذا نسيت ذكرك ، وشر الأصحاب من إذا ذكرت الله لايعينك وإذا نسيت لايذكرك » وقال :« لا تصاحب إلا مؤمنا، ولا يأكل طعامك إلا تقى » . ولذلك يقول مولانا للمؤمنين يوم القيامة :﴿ **يا عباد لاخوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون . الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين. ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون** ﴾ [الزخرف : ٦٨] .

فإذا كان السالك لطريق الهدى يعيش بين هالات الأنوار من جميع الجهات فإن المتسلط عليه شيطانه يسد عليه جوانب الحياة . فقد نطق الكتاب العزيز بذلك على لسان إبليس ، يقول : ﴿ **قل فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراط المستقيم ، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين** ﴾ [الأعراف : ١٧] .

إن هذا القرآن العظيم يحذر ويرشد وينبه ويوقظ ويكشف خدع الشياطين ... تعالى ينادى على عباده فيقول : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان** ﴾ [النور : ٢١] ، ويبين عاقبة اتباع هذه الخطوات فيقول : ﴿ **ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر** ﴾ [النور : ٢١] . والمتأمل فى هذا النص الكريم يجد أن الله تعالى نهى عن اتباع الخطوات وذلك لأن الشيطان لا يأخذ الإنسان فيوقعه فى المعصية مباشرة ، وإنما يسبق ذلك خطوات على طريق المعصية : يستدرج الإنسان فيها شيئاً فشيئاً ، حتى يجد نفسه أمام أمر شنيع ، فإذا ما انغمس فى المعصية وذاق بعد وقوعها تذكر أنه لو حسم الأمر فى بادئه ما أدى به إلى أن يكون من الخارجين لأمر الله . ويتأكد هذا المعنى ويتجلى فى قوله تعالى : ﴿ **ولا تقربوا الزنا** ﴾ وقوله : ﴿ **ولا تقربوا الفواحش** ﴾ [الإسراء : ٣٢] ، وقوله : ﴿ **ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن** ﴾ [الإسراء : ٣٤] .

فالنهى فى هذه النصوص عن القرب ، وهو بالأولى نهى عن فعل الشىء نفسه ، فقرب الزنا أو قرب الفواحش : هو عبارة عن مقدمات تؤدى إلى الفعلة الشنيعة . والمقدمات : كالنظرة والخلوة بالمرأة الأجنبية واللمس أو التقبيل ، إلى غير ذلك من الدواعى التى تؤدى بصاحبها إلى الوقوع فى ما حرم الله .. وقرب مال اليتيم بغير ما أمر الله : هو النظر إليه بعين الطمع ، وتبديل طيبه بخبيث مال الوصى ، وخلط المالين : مال الوصى ومال اليتيم – دون أن يكون هناك حساب قائم يحدد المقادير .. قرب هذه وسائل قرب بغير التى هى أحسن تؤدى إلى أكل الحرام وفعل الحرام . قال تعالى : ﴿ **وآتوا اليتامى أموالهم ، ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيرا** ﴾ إذ أن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه . ألا إن لكل ملك حمى ، ألا إن حمى الله محارمه .

ثم إن هذه الآية الكريمة : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان** ﴾ [النور : ٢١] ، إنما جاءت عقب آيات تتضمن قوانين إسلامية فى نظام المجتمع ، ففى الآية رقم [٢١] من سورة « النور » .. حد الله فى هذه الآيات السابقة حدوداً للزنا وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات ، وبين حكم اللعان بين الرجل وزوجه ، ثم قص علينا حديث « الإفك » فيمن يحب أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا .. فكل هذه الأمور قضايا خطيرة اتخذ فيها الإسلام مواقف حاسمة لتسير سفينة الحياة فى جو معتدل . وبغير هذه المواقف والأحكام والحدود فإن السفينة لن تجد المناخ الصالح ، ولا الجو الملائم ولن تكون لها الرياح مواتية . إذ سرعان ما تصطدم بصخرة عاتية تؤدي بها إلى قاع المحيط ، ومن هنا نتبين أن هذه الجرائم السابقة إنما جاءت نتيجة لاتباع خطوات الشيطان على طريق المعصية ، ولها مبادىء ومقدمات أدت إليها .

ولقد امتن الله سبحانه وتعالى علينا فبين لنا الرشد من الغى فقال : ﴿ **يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم . والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً . يريد الله أن يخفف عنكم ، وخلق الإنسان ضعيفاً** ﴾ وقال جل شأنه : ﴿ **يبين الله لكم أن تضلوا ، والله بكل شىء عليم** ﴾ .

لقد انتفع السلف الصالح بهذه الدروس الخالدة التى غرست فيهم رفيع السجايا وكريم

المبادىء الخلقية فى شتى صورها . فمن أهم ما يتميز به هذا الدين الحنيف أنه دين الرحمة فقد قال – عليه الصلاة والسلام – متحدثاً بنعمة الله عليه : « **إنما أنا رحمة مهداة** » وقال : « **الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء** » . وقال أيضاً : « **لا تنزع الرحمة إلا من شقى** » وقال أيضاً : « **من لا يرحم لا يرحم** » .

وكفى الإسلام فى جمال رحمته وبالغ إنسانيته ورأفته أنه فتح أبواب الجنان لرجل سقى كلباً كان قد اشتد به العطش وأدخل امرأة النار لأنها عذبت هرة حبستها : لا هى أطعمتها ، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض ، حتى ماتت جوعاً .

ويتجلى ويتألق هذا الجانب من الرحمة فى أبي بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب – رضي الله عنهما – فى حادثة تنحنى لها الجباه العالية . فعمر – في عهد أبي بكر الصديق – رضي الله عنهما – وهو بمثابة وزير عدله – يتعهد امرأة عجوزاً عمياء : يرش لها خيمتها ويقوم بتنظيف أرضها ، ويحضر لها طعامها ، ويوصيها ألا تخبر أحداً بهذا الشأن . ويأتى ذات يوم فيفاجأ بأن الخيمة قد كنست ورشت وأحضر الطعام للعجوز ويسألها : من فعل هذا ؟ فقالت : لا أعرفه ، وأوصاني ألا أذكر فعله لأحد .. فيأتى عمر فى اليوم التالى ، ويختبىء وراء صخرة ليرى من الذي يأتى فى خفاء ليقوم بهذا العمل . أتدرون من كان هذا ؟ إنه أبو بكر الصديق . فخرج له عمر من وراء الصخرة وقال له : أنت يا خليفة رسول الله ؟! ثم يرسل هذه الكلمة الخالدة : « ما سابقت أبا بكر لخير إلا سبقنى » !

فهذه حادثة من آلاف الحوادث التى سادت المجتمع الإنساني الكريم . فخليفة ووزيره يتسابقان لخدمة امرأة عجوز أقعدها الهرم ، ويفتح كل منهما مع الله « دفتر توفير » للحسنات ليكون له الرصيد الأعظم عند الرحمن جل جلاله ﴿ **ما عندكم ينفد وما عند الله باق** ﴾ [النحل : ٩٦] ، ﴿ **من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها** ﴾ [الأنعام : ١٦٠] .

فاللهم اجعلنا من جنودك المخلصين الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

القرآن وأثره في تربية الأخلاف

ليس هناك من طريق للنجاة أعظم من كتاب الله الذى علَّم المسلمين أعظم الصفات وأجلها ونستعرض هنا على سبيل المثال ـ لا الحصر ـ بعض تلك الصفات .

• لقد علمهم الأمانة ؛ فقد قضى الإحساس برقابة الله على جميع رواسب الجاهلية فى نفوس المؤمنين ، وطبعهم بطابع ربانى فريد كله خشية لله ومراقبة له وابتغاء لمرضاته ، ومما يروى فى ذلك : أنه لما هبط المسلمون المدائن وجمعوا الأقباض : أقبل رجل بحق معه ، فدفعه إلى صاحب الأقباض ، فقال للذين معه : ما رأينا مثل هذا قط ما يعدله ما عندنا ، ولا يقاربه ، وقالوا للرجل : هل أخذت منه شيئاً ؟ قال : أما والله لولا الله ما أتيتكم به فعرفوا أن للرجل شأناً ، فسألوه : من أنت ؟ فقال : لا والله لا أخبركم لتحمدونى ، ولكنى أحمد الله وأرضى بثوابه ، فأتبعوه رجلاً حتى انتهى إلى أصحابه ، فسأل عنه ، فإذا هو عامر بن قيس .

• كذلك علمهم الإسلام التسامح ، وأكد هذا المعنى فى نفوسهم فلا شحناء ولا بغضاء : فهذا علية بن يزيد ـ رضي الله عنه ـ لا يقوى على الجهاد ، فيقوم من الليل يصلى ، ثم يتوجه إلى رافع السماء بلا عمد ، ودموع الاعتذار تفيض على خديه ، فماذا قال فى اعتذاره لربه ؟ قال : « اللهم إنك قد أمرت بالجهاد ورغبت فيه ، وأنت تعلم أننى لا أملك ما أتقوى به على الجهاد ، وليس عند رسولك ما يحملنى عليه .. فاللهم أشهدك أننى قد تصدقت على كل مسلم ومسلمة بكل مظلمة ظلمنى بها فى نفسى أو مالى أو عرضى » .

وفى الصباح يذهب إلى رسول الله ـ ﷺ ـ ، ويقف الرسول بوجهه المستنير كأنه قطعة قمر وينادى : « **أين المتصدق الليلة الماضية ؟** » فيسكت « علية » فيكرر الرسول ـ ﷺ ـ النداء ، فيقول « علية » : أنا يارسول الله ، فيقول له سيد الخلق وحبيب الحق : « **أبشر ! فقد كتبت صدقتك فى الزكاة المقبولة** » .

إنها السماحة فى أجل معانيها ، وإنه العفو والصفح الجميل .. يتصدق بكل مظلمة

على كل مسلم ومسلمة ، وأياك كان نوع هذه المظلمة ! إنها روح القرآن .. وإنها نفحاته القدسية . وإنها شمائله الربانية .. جميل فى كل شىء : فى صفحه جميل « فاصفح الصفح الجميل » وفى صبره جميل « فاصبر صبراً جميلا » وحتى فى هجره جميل : « واهجرهم هجراً جميلا » .

• وغرس فيهم القرآن روح العزة مهما أدلهمت الخطوب ، وصار الخطب فادحاً .. فها هو ذا سعد بن أبى وقاص ـ قبل واقعة القادسية ـ يرسل « ربعى بن عامر » إلى « رستم » قائد جيوش الفرس وأميرهم ، فيدخل عليه وقد زينوا مجلسه وقد جلس على سرير من ذهب ، ودخل « ربعى » بثياب صفيقة وترس وفرس قصيرة ، ولم يزل راكبها حتى داس بها طرف البساط ، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد ، وأقبل عليه وعليه سلاحه ودرعه وبيضته على رأسه ، فقالوا له : ضع سلاحك ، فقال : إنى لم آتكم . وإنما دعوتمونى ، فإن تركتمونى هكذا وإلا رجعت ، فقال رستم : دعوه . فأقبل يتوكأ على رمحه ، فسأله « رستم » : ما جاء بكم ؟ فقال : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

إنها عزة النفس مهما تكن قسوة العدو ، وإنها عزة الإسلام ، مهما تكن قوة الجانب الآخر ، إنها العزة التى قال فيها عمر ـ رضي الله عنه ـ : « لقد كنا أذلاء فأعزنا الله بالإسلام ، فإذا ابتغينا العزة فى غيره أذلنا الله » .

• علمهم هذا الكتاب أفضل الصفات وأرفعها ، وأقواها وأقومها وأطهرها وأزكاها : ألا وهى صفة الصدق ، كما أمرهم بذلك النبى العظيم فى قوله : « **عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً** » وحذرهم من الكذب فقال : « **وإياكم والكذب : فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً** » . وقد سئل رسول الله ـ ﷺ ـ : أيكون المؤمن كذاباً ؟ فقال : « **لا** » وقد طلب من أحد العصاة نصحه فقال : « **لا تكذب** » .

• اعلموا أن الصدق منجاة مهما اشتد الخطر ، ومهما كانت العوامل المترتبة عليه ،

فصدقوا .. وها أنذا أقدم أستاذاً فى علم الصدق يتحدث إلينا فى أحرج المواقف وأشد الظروف : إنه كعب بن مالك — رضى الله عنه — ، أحد الثلاثة الذين خلفوا : ولأنتقل بكم الآن إلى « كعب » وهو يجلس مأأم سيدنا رسول الله — ﷺ —: الرسول يسأل وكعب يجيب ، فلنستعرض القصة بأكملها :

قال كعب بن مالك : لم أتخلف عن رسول الله — ﷺ — فى غزوة غزاها قط إلا فى غزوة تبوك غير أنى كنت تخلفت فى غزوة بدر ، ولم يعاتب أحد تخلف عنها ، وإنما خرج رسول الله — ﷺ — يريد عير قريش ، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول الله — ﷺ — ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام ، وما أحب لى بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكر فى الناس منها وأشهر ، وكان من خبرى حين تخلفت عن رسول الله — ﷺ — فى غزوة تبوك ، أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزاة ، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما فى تلك الغزوة ، وكان رسول الله — ﷺ — كلما يريد غزوة يغزوها إلا ورى بغيرها ، حتى كانت تلك الغزوة ، فغزاها رسول الله — ﷺ — فى حر شديد واستقبل سفراً بعيداً ومفاوز ، واستقبل عدواً كثيراً ، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم ، فأخبرهم وجهه الذى يريد ، والمسلمون مع رسول الله لا يجمعهم كتاب حافظ « يريد الديوان » قال كعب : فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى عليه ، ما لم ينزل فيه وحى من الله — عز وجل —، وغزا رسول الله — ﷺ — تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال ، وأنا إليها أصعر ، فتجهز إليها رسول الله — ﷺ — والمؤمنون معه ، فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم ، فأرجع ولم أقض من جهازى شيئاً ، فأقول لنفسى : إنى قادر على ذلك إذا أردت ، فلم ذلك يتمادى بى حتى استمر الناس بالجد ، فأصبح رسول الله — ﷺ — غادياً والمسلمون معه ، ولم أقض من جهازى شيئاً ، وقلت : أتجهز بعد يوم أو يومين ثم ألحقه ، فغدوت بعدما فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض من جهازى شيئاً ، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً ، فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى أسرعوا ، وتفارط الغزو ، فهممت أن أرتحل فألحقهم ، وليت أنى فعلت ، ثم لم يقد ذلك لى فطفقت إذا خرجت فى الناس بعد رسول الله — ﷺ — يحزننى أننى لا أرد إلا رجلاً مغموصاً عليه فى النفاق ، أو رجلاً ممن عذره الله — عز وجل — .. لم يذكرني رسول الله — ﷺ — حتى بلغ تبوك » . فقال وهو جالس فى القوم بتبوك :

« ما فعل كعب بن مالك ؟ » فقال رجل من بنى سلمة : حبسه يارسول الله برداه والنظر فى عطفيه . فقال معاذ بن جبل : بئسما قلت والله يارسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً . فسكت رسول الله — ﷺ — . قال كعب بن مالك : فلما بلغنى أن رسول الله — ﷺ — قد توجه قافلاً من « تبوك » حضرنى بثى ، وطفقت أتذكر الكذب وأقول : بماذا أخرج من سخطه غدا ؟ وأستعين على ذلك بكل ذى رأى من أهلى . فلما قيل إن رسول الله — ﷺ — قد أظل قادماً زاح عنى الباطل ، وعرفت أنى لم أنج منه بشىء أبداً ، فأجمعت صدقه ، فأصبح رسول الله — ﷺ —، وكان إذ قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى ركعتين ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له ، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً ، فيقبل منهم رسول الله — ﷺ — علانيتهم ويستغفر لهم ويكل سرائرهم إلى الله تعالى . حتى جئت ، فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ثم قال لى : (تعال) ، فجئت أمشى حتى جلست بين يديه ، فقال لى : « ما خلفك ؟ ألم تكن قد اشتريت ظهرا ؟ » فقلت يارسول الله ، إنى لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرج من سخطه بعذر ، لقد أعطيت جدلاً ، ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم بحديث كذب ترضى به عنى ليوشكن الله أن يسخطك على ، ولئن حدثتك بصدق تجد على فيه إنى لأرجو عقبى ذلك من الله — عز وجل —: والله ما كان لى عذر ، والله ما كنت قط أفرغ ولا أيسر منى حين تخلفت عنك . قال : فقال رسول الله — ﷺ —: « أما هذا فقد صدق . فقم حتى يقضى الله فيك » فقمت ، وقام إلى رجال من بنى سلمة واتبعونى ، فقالوا لى : والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا ، ولقد عجزت ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله — ﷺ — بما اعتذر به المتخلفون ، فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله — ﷺ — لك . قال : فوالله ما زالوا يؤنبونى حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسى . قال ثم قلت لهم : هل لقى معى هذا أحد ؟ قالوا : نعم ، لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت وقيل لهما مثل ما قيل لك ، فقلت : فمن هما ؟ قالوا مرارة بن الربيع العامرى ، وهلال بن أمية الواقفى ، فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدراً لى فيهما أسوة .

وهذا الحديث بقية طويلة تروى ما عاناه هؤلاء الثلاثة من مرارة وعذاب لمدة خمسين يوماً نهى رسول الله — ﷺ — فيها عن كلامهم وأمرهم باعتزال نسائهن حتى نزل

فيهم قول الله – عز وجل –: ﴿ لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعدما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم ﴾ . [الآية] . قال كعب : فوالله ما أنعم الله علىّ من نعمة قط بعد أن هدانى للإسلام ، أعظم فى نفسى من صدق رسول الله – ﷺ – يومئذ أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوه ، فإن الله – تعالى – قال للذين كذبوه حين أنزل الوحى شر ما قال لأحد حيث قال جلّ شأنه ﴿ سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون ... ﴾ [التوبة : ٩٥] الآية .

إن البيان يعجز ، واللسان يكل ، والبلاغة تسلم أعنتها ، والقلب يخشع أمام هذا المحراب المقدس ، ولا يجد الإنسان تعبيراً يعبر به عن هذه التربية إلا أن يقول : لا عجب ، فإنهم أصحاب محمد – ﷺ – نهلوا من منهله العذب وتعلموا فى مدرسته العظمى أن الصدق صفة من صفات الله ورسوله ، فتجشموا هذا البلاء العظيم : هجر خمسين يوماً ، وهجر نسائهم لهم بعد أربعين يوماً ، وتنكر المجتمع لهم حتى ظنوا أن الأرض التى يحيون فوقها قد تنكرت هى الأخرى بعدما ضاقت عليهم بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم !؟ إنها رقابة الله عليهم ، إنها قلوبهم السليمة وضمائرهم اليقظة بقيم الإسلام فصدقوا لأن الصدق منجاة .

صلى الله عليك يا معلم الهدى وعلى آل بيتك الأطهار الأبرار وعلى أصحابك أخيار ومن اتبعك بإحسان إلى يوم الدين .

عواقب الإعراض عن ذكر الله

من قضايا القرآن العظيم : تلك القضية التى سجلها كتاب الله الكريم من بدء الخليقة إلى يوم أن يرث الله الأرض ومن عليها : ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ، ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ [طه : ١٢٣] .

إن ذوى الألباب المستبصرة ، وأولى الأفئدة المستنيرة ، إذا ما طرحوا هذه القضية على بساط البحث ، وتخلوا مخزون فكرهم ، وقدحوا زناد عقولهم : وجدوا القسمة ثنائية ، فالناس فريقان : فريق اتبع الهدى . وفريق أعرض عن الذكر .. فريق اهتدى ، وفريق غوى فهوى .. فريق سلك الطريق المستقيم ، وفريق تفرقت به السبل فضاع فى بيداء الحياة . وترتب على كل من الفريقين نتائج مختلفة . ولقد تكلمنا – فيما سبق – عن نتائج الفريق الأول ، فريق المهتدين ، وقلنا إنها فى مجموعها تدور حول هذه الأمور التى سجلها الكتاب العزيز :

١ – لا خوف عليهم .
٢ – ولاهم يحزنون .
٣ – لا يضل .
٤ – ولا يشقى .

ثم تأتى نتائج ترتبت على سلوك الفريق الآخر ، فتسجل سورة « البقرة » هذا الفريق الذى يقابل فريق المهتدين بأنهم الذين كفروا وكذبوا بآيات الله . قال جل شأنه : ﴿ فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ [البقرة : ٣٩] .

فهذه الآية المقابلة لآية الهداية تسجل على الفريق الآخر – إذا أدى به إعراضه إلى الكفر والتكذيب – تسجل عليه الخلود فى النار ، لأن الإعراض والعزوف عن اتباع الهدى – هدى الله – قد يكون طريقاً إلى التكذيب بآيات الله ، أو استكبار عن أمره ،

كما أدى ذلك بإبليس عندما تسرب الغرور إلى نفسه ، واستحكم الكبر على فكره ، عندما أمر بالسجود لآدم فأبى وقال له ربه : ﴿ ياإبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى ، استكبرت أم كنت من العالين . قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾ [صٓ : ٧٥] .

سجل الله عليه فى هذا الموقف الذى أعرض فيه عن أمر الله وطاعته أنه استكبر وكان من الكافرين . وهكذا يؤدى الغرور والجهل والجحود والكبر بالإنسان إلى هاوية العذاب ..

ألم يقل ربك فى حق هذا المستكبر : ﴿ فاخرج منها فإنك رجيم ، وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين ﴾ [صٓ : ٧٨] ، ألم يقل هذا المستكبر لرب العزة : ﴿ رب فانظرنى إلى يوم يبعثون ﴾ . ألم يخبره رب العزة بقوله : ﴿ فإنك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم ﴾ .

وهكذا يظل الصراع دائراً بين الحق والباطل ، وبين الخير والشر ، وعن كلا الجانبين أنواع وأنماط ونماذج من الناس .. ألم يقسم هذا اللعين بقوله : ﴿ فبعزتك لأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ [صٓ : ٨٣] ، ثم يقول له المولى جلَّ فى علاه : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ، إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ [الحجر : ٤٢] .

ثم ألم يتوعد هذا اللعين الناس بنشر سمومه وشروره عندما يقول لرب العزة : ﴿ لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ [الأعراف : ١٧] . ثم يقول له المولى جل فى علاه : ﴿ اخرج منها مذءوماً مدحوراً . لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين ﴾ [الأعراف : ١٨] . ألم يقل ذلك الرجيم لخالق السماوات والأرض : ﴿ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً ﴾ [الإسراء : ٦٢] .

ألم يقل له مولانا : ﴿ اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً . واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً . إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ، وكفى بربك وكيلا ﴾ [الإسراء : ٦٥] .

[redacted]

هكذا ، وكما جاء فى الحديث الشريف : « إن إبليس قال لرب العزة لأغوينهم مادامت أرواحهم فى أبدانهم ، فقال رب العزة : وعزتى وجلالى لأغفرن لهم ماداموا يستغفروا » ثم يوجه الخطاب إلى آدم أبى البشر : ﴿ وياآدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾ [البقرة : ٣٥] . ويسكن آدم الجنة مع زوجه ثم بعد ذلك يسجل القرآن هذا الموقف : ﴿ فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما وورى عنهما من سوءاتهما . وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين . فدلاهما بغرور . فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة . وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين . قالا ربنا ظلمنا أنفسنا . وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين . قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ [الأعراف : ٢٤] .

ولقد سجلت سورة [البقرة] و [طه] توبة الله عليهم . فى جل شأنه فى سورة البقرة : ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه . إنه هو التواب الرحيم ﴾ [البقرة : ٣٧] . وفى سورة طه : ﴿ ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ﴾ [طه : ١٢٢] .

وهكذا دخل آدم الجنة وقد امتلأ قلبه شوقاً إليها .. وهكذا أكل من الشجرة ، وأقر الله بقوله : ﴿ ظلمنا أنفسنا ﴾ وهكذا تاب ، فتاب الله عليه .. خطوط عريضة سار بنو آدم على منوالها ، وسلكوا سبيلها .. كلنا مشتاق إلى الجنة ، وكلنا مخطىء ، لكن خير الخطائين التوابون وإذا كان البر لا يبلى فإن الذنب لا ينسى ، وإذا كنا إلى فناء فإن الديان لا يموت ، وإذا كنا نعمل فإن الجزاء من جنس العمل .. فاعمل ما شئت كما تدين تدان .

وإذا كان لكل دين خلق ، فإن خلق الإسلام الحياء ، ولقد قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « استحيوا من الله » . قالوا : يارسول الله : إنا نستحى من الله ، فقال ـ ﷺ ـ : « من استحيى من الله حق الحياء فليحفظ الرأس

وما وعى ، والبطن وما حوى ، وليكثر من ذكر المقابر والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا » .

ثم يقول ـ ﷺ ـ: **« الكيس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من اتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأماني »** .

هكذا دخل آدم وزوجه الجنة ، وهكذا أكلا من الشجرة ، وهكذا هبطا إلى الأرض ، نماذج مختلفة ، والحياة صراع مستمر ، وعراك دائم بين الخير والشر ، وبين الحق والباطل .

لقد صدر الحكم من الله أن تحيى البشرية فى هذه الأرض ، وتموت فيها ، وتخرج منها يوم القيام . قال الله تعالى : ﴿ **قال فيها تحيون ، وفيها تموتون ، ومنها تخرجون** ﴾ .

وقال أيضاً : ﴿ **منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى** ﴾ [طه : ٥٥] .

ولقد تدارك الحق بلطف بره أهل الأرض ، فكان من مظاهر لطفه بهم أنه وهبهم عقلاً ، ومنحهم حواس وقوى ، ووهبهم فطراً ، وبعد ذلك لم يتركهم هملاً . فقد تجلى لطفه بهم ، فأرسل لهم رسلاً مبشرين ومنذرين ، ﴿ **لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل** ﴾ [النساء : ١٦٥] . وشاءت رحمته أن يكلف العباد بأمور فى حدود طاقتهم : ﴿ **يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر** ﴾ . ﴿ **وما جعل عليكم فى الدين من حرج** ﴾ [الحج : ٧٨] . ﴿ **ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً** ﴾ [النساء : ٢٩] .

فلو أن العباد تركوا وشأنهم يشرعون لأنفسهم ما تمليه عليهم عقولهم : لوقعوا فى حيرة الظلام ، واصطدموا بظلام الحيرة . فالعقول مختلفة متفاوتة متضاربة متناقضة فما يراه هذا حسنا يراه غيره قبيحاً ، و ما يراه هذا عدلاً يراه غيره ظلماً ، وما يعتقده هذا حقاً قد يراه غيره باطلاً ، وبين هذا التضارب فى هذا الخضم المتلاطم تهوى البشرية فى قاع الخيط ، ومن هنا جاء القانون القرآنى الخالد : ﴿ **قال اهبطا منها جميعاً ، بعضكم لبعض عدو . فإما يأتينكم منى هدى ، فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى** ﴾ .

كذلك من مظاهر لطف الله بعباده أنه رفع القلم عن ثلاث : (عن الصبى حتى يحتلم وعن المجنون حتى يفيق ، وعن النائم حتى يستيقظ) . ورفع عنا الخطأ والنسيان وما استكرهنا عليه ، فليس لأحد بعد ذلك أن يرمى أحكام الله بما لا يليق بها .. فالأحكام عادلة ، والشريعة سمحة ، وطريق الإسلام أبلج على المحجة البيضاء .. ليلها كنهارها .

فيا اخا الإسلام :

تزود من التقوى فإنك لا تدرى ... إذا جن ليل : هل تعيش إلى الفجر
فكم من فتى أمسى وأصبح ضاحكاً ... وقد نسجت أكفانه وهو لا يدرى
وكم من عروس زينوها لزوجها ... وقد قبضت أرواحهم ليلة القدر
وكم من صغار يرتجى طول عمرهم ... وقد أدخلت أجسادهم ظلمة القبر

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

توجيهات ربانية

انظر إلى لطف الله بعدما حكم للبشرية أن تحيى فى هذه الأرض . خاطب أبناء آدم وقال : **﴿ يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم وريشا ، ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون ﴾** [الأعراف : ١٢٦] . فإذا ما نزعت البشرية هذا الستر الذى أراد الله أن يستر سوءاتها به ، فإنما هى بهذا العمل تنحدر إلى الحضيض ، لأن الرسول - ﷺ - حذر من العرى فقال : **« إياكم والتعرى ، فإن معكم من لا يفارقونكم إلا عند الحاجة ، وعندما يفضى أحدكم إلى أهله ، فاستحيوهم وأكرموهم »** حتى بلغ من أدبه - ﷺ - أنه أمر الرجل أن يستتر إذا أتى أهله ، فقال : **« إذا أتى أحدكم أهله فليستتر »** . ولو خلا الإنسان بنفسه فعليه أيضاً أن يستتر ، كما أخبر الرسول - ﷺ - بأن الله يراك ، والله أحق أن يستحيى منه ، ثم يأتى لباس التقوى وهو السلاح الأقوى .

إذا المرء لم يلبس ثياباً من التقى ... تقلب عرياناً ولو كان كاسياً
وخير لباس المرء طاعة ربه ... ولا خير فى من كان لله عاصياً

ولقد حذر رسول الله - ﷺ - نوعاً من النساء لا يجدن ريح الجنة ، ووصفهن بأنهن كاسيات عاريات مائلات مميلات ، رؤوسهن كأسنمة البخت ، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها فإذا ما عصت المرأة ربها ، وألقت ثوبها فى غير بيت زوجها ، برئت منها ذمة الله .

أما إذا صلت خمسها ، وصامت شهرها ، وحفظت فرجها ، وأطاعت زوجها ، قيل لها يوم القيامة : ادخلى الجنة من أى أبوابها الثمانية شئت !

ثم يأتى الموقف الثانى بعد هبوط آدم من الجنة حيث يذيع القرآن الكريم هذا التحذير الشديد : **﴿ يابنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما ، إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ﴾** [الأعراف : ٢٧] .

وهذا مصباح منير يقطع المعاذير للعباد أمام الله .. يقول جل شأنه فى بعض مواقف القيامة : **﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون . ألم أعهد إليكم يابنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين . وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم ﴾** [يس : ٦١] .

بل إن الشيطان نفسه سيقف على مسرح القيامة ويصيح : **﴿ إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم ، فاستجبتم لى ، فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى . إنى كفرت بما أشركتمون من قبل ، إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾** [إبراهيم : ٢٢] . وقال جل شأنه : **﴿ فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه ، وقال إنى برىء منكم ، إنى أرى ما لا ترون ، إنى أخاف الله ، والله شديد العقاب ﴾** [الأنفال : ٤٨] .

وقال سبحانه : **﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ، فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين ﴾** [الحشر : ١٦] .

ولم يكن التحذير قاصراً على شيطان الجن وحده ، بل الشيطان على شتى صوره : إنسياً كان أو جنياً .. لقد سئل أحد العارفين بالله : أيهما أشد عليك ؟ فقال : شيطان الإنس ، لأن شيطان الجن إذا استعذت بالله ولى هارباً ..

لذلك يقرن القرآن الكريم بين الشيطانين مقدماً شيطان الإنس فى قوله تعالى : **﴿ وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ﴾** [الأنعام : ١١٢] . وذكر العلاج عند نزغ كل منهما . قال فى سورة « الأعراف » يبين علاج شيطان الجن : **﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم ﴾** . وقال فى شيطان الإنس : **﴿ خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلية ﴾** . قال رسول الله - ﷺ - لما نزلت هذه الآية : قلت : ياجبريل أخبرنى عنها ، قال : لا أدرى حتى أسأل رب العزة . ثم هبط على سيدنا رسول الله - ﷺ - فقال له : **« أن تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك »** .

وفى سورة (المؤمنون) يقول الله تعالى فى دواء كل منهما : يقول فى علاج شيطان الإنس : **﴿ ادفع بالتى هى أحسن السيئة ، نحن أعلم بما يصفون ﴾** [المؤمنون : ٩٦] .

ويقول فى علاج شيطان الجن : ﴿ **وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين . وأعوذ بك رب أن يحضرون** ﴾ .

ويقول فى سورة (فصلت) فى علاج شيطان الإنس : ﴿ **ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم . وما يلقاها إلا الذين صبروا . وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم** ﴾ [فصلت : ٣٥] ، وفى علاج شيطان الجن فى نفس السورة : ﴿ **وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم** ﴾ [فصلت : ٣٦] .

والقارىء الكتاب الله المتمعن فى آيات يجد إذاعة القرآن الكريم لا تكف عن إصدار بياناتها ضد الشيطان وأعماله ، فعندما يقول القرآن الكريم : ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً** ﴾ يحذر من هذه الفعلة الشنيعة وهى الشرك ، ثم يرفع الستار ، ويكشف النقاب عن نشاط الشيطان فى هذا المجال ، فيقول جل شأنه : ﴿ **إن يدعون من دونه إلا أناثاً ، وإن يدعون إلا شيطاناً مريدا لعنه الله** ﴾ . ثم بعد ذلك يبرز أمام العيون ما قاله ذلك الرجيم حتى لا يكون سراً مكنوناً فى ضمير الغيب فيقول سبحانه : ﴿ **وقال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا** ﴾ [النساء : ١١٨] ، ثم يميط اللثام بعد ذلك عن الطرق التى يأخذ بها ذلك النصيب المفروض ، فيقول جل شأنه : ﴿ **ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ، ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ، ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً . يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً** ﴾ [النساء : ١٢٠] .

ثم يصدر الحكم الحاسم الحازم لأتباع هذا الضال المضل من الشياطين فيقول : ﴿ **أولئك مأواهم جهنم ، ولا يجدون عنها محيصاً** ﴾ [النساء : ١٢١] .

ثم تأمل جلال القرآن وجماله وهو يؤكد عداوة الشيطان للإنسان فيقول : ﴿ **وكان الشيطان للإنسان خذولاً** ﴾ ثم يقول : ﴿ **إن الشيطان للإنسان عدو مبين** ﴾ . ثم يؤكد هذا الخطاب فيقول : ﴿ **إن الشيطان لكم عدو ، فاتخذوه عدوا ، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير** ﴾ .

ويوم تنحرف البشرية عن طريق الله ، فإن الشياطين تصير لهم مزينة . ويصيرون لها متبعين وتقوم بين هؤلاء وأولئك ولاية وصلة . اسمع إلى كلام الله وهو يقول فى حق الشيطان . ﴿ **إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ، إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون** ﴾ [الأعراف : ٢٧] .

وحين تقوم هذه الولاية بين الفريقين يلقى الشيطان على ألسنة أتباعه الحجج الباطلة والمراء والكذب : لقد كان العرب فى جاهليتهم يطوفون بالبيت عراة الأجساد ـ نساء ورجالاً ـ فإذا سئلوا عن ذلك قالوا : هكذا كان يفعل آباؤنا والله أمرنا به ! ثم شفعوا هذا القول بعذر هو أقبح من الذنب فقالوا : إن ثيابنا هذه التى فعلنا فيها الخطايا والمعاصى ، لا يليق أن نطوف بها ! وعندئذ يتصدى لهم القرآن فيدحض حججهم ، ويمحو شبههم ، فيقول تعالى : ﴿ **وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا ، والله أمرنا بها ، قل إن الله لا يأمر بالفحشاء . أتقولون على الله ما لا تعلمون . قل أمر ربي بالقسط . وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ، وادعوه مخلصين له الدين ، كما بدأكم تعودون . فريقا هدى ، وفريقا حق عليهم الضلالة . إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله . ويحسبون أنهم مهتدون** ﴾ [الأعراف : ٣٠] ، ثم يمضى ما فعلوا فيقول : ﴿ **يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد** ﴾ [الأعراف : ٣١] .

ويوم تنحرف البشرية يزين الشيطان لها سوء عملها فتراه حسنا ، فتصد عن سبيل الله . قال جل شأنه : ﴿ **وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون** ﴾ [النمل : ٢٤] . وقال جل شأنه : ﴿ **أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً** ﴾ . ويومها أيضاً سيمد لها الشيطان شباكه وحبائله فتتبعه .. يقول جل شأنه : ﴿ **فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم . أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها** ﴾ .

ولقد آلى الشيطان على نفسه ألا يقف موقف النصح لأى مؤمن . فقد جاء فى كتاب « تلبيس إبليس » للإمام ابن الجوزى ، أن يحيى ابن زكريا عليهما السلام رأى الشيطان ذات يوم فقال له : « **أعدك ما تستطيع أن تشغلنى به** ؟ » قال الشيطان : لا أجد إلا أن تأكل كثيراً وتشرب كثيراً فتنام كثيراً وتؤخر الصلاة عن وقتها . قال يحيى ـ عليه السلام ـ : « **لا أشبع بعد اليوم قط** » . قال الشيطان : وأنا لا أنصح بعدك أحدا .

وجاء فى هذا الكتاب أيضاً أن بعض الصالحين سأل الشيطان : كيف حالك اليوم مع الناس ؟ فقال الشيطان : كنت بالأمس أعلمهم ، ولكننى صرت اليوم أتعلم منهم ! ولا عجب فقد قيل لأحد العارفين بالله : هل يكف الشيطان عن الغواية ؟ فقال : إذن لاسترحنا .

اللهم احفظنا بحولك وقوتك من الشيطان الرجيم واجعلنا من عبادك المخلصين .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

من أعرض عن الله سلك طريق الشيطان

إن نتائج الإعراض عن ذكر الله تجل عن الحصر لأن مسالك الشيطان مع الإنسان متعددة . وإليكم تفسير ذلك :

إذا كان الله ـ تعالى ـ يقول : ﴿ **إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم** ﴾ فليست الرؤية هنا قاصرة على رؤية العين ، وإنما تتعداها إلى الرؤية العلمية . أى أن الشيطان يعلم المسالك التى يدخل بها عليكم من حيث لا تعلمون مسالكه ومسالك قبيله . وللشيطان من المسالك الكثير المتنوع : هو ثالث الشريكين إذا خان أحدهما الآخر ، وهو الثالث للرجل والمرأة الأجنبية إذا خلا أحدهما بالآخر ، وهو الواقف أمام الإنسان إذا أراد أن يتصدق ، يعده بالفقر ، ويأمره بالفحشاء وهو الدافع للإنسان إذا طلق زوجته صباحاً أن يأتيها مساء ، وهو الذى يوقع العداوة والبغضاء بين الناس فى الخمر والميسر ويصدهم عن ذكر الله وعن الصلاة ، وهو الذى يقف أمام فاعل الخير فى أى وجه من وجوهه يدعوه إلى عبادة الدرهم والدينار والخميصة . يقطع الرحم ويزيد العلاء ، وهو الوقف أمام المجاهد يذكره بماله وولده وزوجه ، يقول : أتلقى بنفسك فى الهلاك وتترك مالك وأهلك وولدك ؟ وهو الذى ينسى الإنسان أوقات الصلاة ويلقى عليه بالكسل ، فإذا ما دخل الإنسان الخلاء ذكره بربه ، وحاول أن يلقى بآيات الله على لسانه فى مكان لا يليق فيه ذكر الله ، وهو الذى يرسل موجاته طويلة المليئة بالوساوس ، يعرض الدنيا أمام الإنسان ، وهو واقف بين يدى الله فى الصلاة ، ولذا قال موسى ـ عليه السلام ـ : « **ياموسى تذكرنى ولا تنسانى ، إنك إن ذكرتنى شكرتنى ، وإن نسيتنى كفرتنى** » . قال تعالى : ﴿ **فاذكرونى أذكركم ، واشكروا لى ولا تكفرون** ﴾ [البقرة : ١٥٢] .

ولقد ساق صاحب كتاب « تلبيس إبليس » والعلامة ابن كثير فى معنى قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ **كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك ، إنى أخاف الله رب العالمين** ﴾ [الحشر : ١٦] .

سافاً أمثلة تكاد تنفطر لها الأكباد لكيد الشيطان : قال العلامة ابن كثير فى رواية عن ابن جرير عن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ قال : إن راهباً تعبد ستين سنة ، وإن الشيطان أراده فأعياه ، فعمد إلى امرأة فأجنها ، ولها إخوة ، فقال لإخوتها : عليكم بهذا الراهب فيداويها ، قال : فجاءوا بها إليه ، فداواها ، وكانت عنده فبينما هو يوماً إذ أعجبته ، فأتاها ، بعد أن أغواه الشيطان ، فحملت ، فعمد إليها فقتلها ، فجاء إخوتها ، فقال الشيطان للراهب : أنا صاحبك ، إنك أعييتنى ، أنا صنعت هذا بك ، فأطعنى أنجك مما صنعت بك ، فاسجد لى سجدة ، فلما سجد له ، قال : ﴿ إنى برىء منك ، إنى أخاف الله رب العالمين ﴾ [الحشر : ١٦] .

وفى قوله الله تعالى : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾ [الزخرف : ٣٦] ، نجد الكثير من الكنوز الربانية : فالشيطان إذا تمكن من الإنسان ، قد يصبح الإنسان أستاذاً له ، ويصبح الشيطان تابعاً له : ألم تر ياأخى إلى ذلك العالم من بنى إسرائيل ويدعى « بلعام بن باعورا » كان حبراً كبيراً ، وبلغ من ثقة نبى الله موسى فيه أن أوفده إلى أهل مدين يدعوهم إلى الله ، ويقف « بلعام الخير » مرشداً وهادياً ، ويقف الشيطان منه عدواً عنيداً ، ومضلاً وخصماً لدوداً ، فيغرى أهل مدين أن يقدموا له المال فى سبيل أن يكف عن هذا الكلام ، ويترك موسى ودعوته . فيعرضون عليه المال ، وما أدراك ما المال ؟! سلاح فتال . فبذهب بريقه الذى يلعب بالقلوب ، وللفضة رنينها الذى يسيل له لعاب الضعفاء ، وتمكن الإغواء والإغراء من قلب « بلعام » فقبل المال ، وترك الدعوة ، وجفا موسى وربه .

ويسجل القرآن هذا الدرس ليقصه صاحب الرسالة العصماء ، فيكون فيه المثل والعبرة ، قال جل شأنه : ﴿ واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب ، إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون . ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا . وأنفسهم كانوا يظلمون ﴾ [الأعراف : ١٧٧] .

أقرأ هذا المشهد من القرآن ، فإنه مدرة تلقى البشر دروساً لا تنسى ، وتقص على الناس العبرة الأولى الألباب . إنه نبأ الذى آتاه الله آياته فانسلخ منها .. قف عند قوله

ـ تعالى ـ : ﴿ فانسلخ منها ﴾ فإن هذه الكلمة أثرها الكبير ، ومغزاها .. لم يقل الكتاب العزيز « فانفصل عنها » أو « فتركها وإنما قال : ﴿ فانسلخ منها ﴾ والسلخ كما يقولون : كشط الجلد عن اللحم . فلو أن هذا الرجل انفصل عن الآيات أو تركها ، لكان من الجائز أن يعود إليها يوماً . ولكن لفظ « الانسلاخ » أفاد أن عودته إليها أمر غير محتمل . كما لايمكن أن يعود الجلد إلى اللحم بعد سلخه ، كذلك أفاد هذا اللفظ أن آيات الله كانت تزينه وتبديه للناس جميلاً فى طلعته وبهائه ، كما يزين الجلد لحمه . فلما انسلخ من الآيات أصبح قبيحاً دميماً ، كما يبدو اللحم بعد كشط الجلد عنه .

ويفيد هذا اللفظ أيضاً أن آيات الله كانت تحميه من عوادى الزمن كما يحمى الجلد لحمه ، فلما انسلخ منها أصبح عرضة للعوادى وعوامل الإغواء . واستهوته الشياطين فى الأرض حيران . ثم ألق نظرة أخرى على قوله تعالى : ﴿ فأتبعه الشيطان ﴾ وكيف جاء العطف بالفاء ـ التى تفيد الترتيب والتعقيب ـ كأن الشيطان انتهزها فرصة بمجرد أن نسلخ هذا الإنسان من الآيات فأتبعه .

ثم ارجع البصر كرتين فى قوله تعالى : ﴿ فأتبعه الشيطانُ ﴾ ولم يقل فتبع الشيطان فإن فى هذا الترتيب عبرة بالغة : أى أنه لتأصل الغواية فى قلبه أصبح متبوعا والشيطان تابعا ثم انتقل بعد ذلك إلى قوله تعالى : ﴿ فكان من الغاوين ﴾ وكيف جاء التعبير « كان » التى تفيد الكينونة والاستقرار دون أن يؤدى « بأصبح » أو « صار » كأن هذا الذى ضل : استقر فى الغواية والضلال : ثم انتقل إلى الآية التى تليها وتأملها بعدما انسلخ هذا من الآيات وبعدما صار الشيطان له تابعا ، وهو أستاذ له ، وبعدما استقر فى الغواية ـ تثبت المشيئة الإلهية بعد ذلك أن الله تعالى لو شاء لرفعه بالآيات ، ولكن الذى حدث أنه لم يكن عنده أى استعداد لأن يرتفع بالآيات ، بعدما رضى بالحياة الدنيا ، واطمأن بها ، وركن إليها ، ومال إليها ، دون أن يكون هناك ضمير يؤنب ، أو نفس تلوم .

فبين غفوة الضمير وقسوة العاطفة ، نامت النفس على هدهدة الشهوات ، وذهب وازع الخوف من الله فيها : وما أجمل هذا التركيب القرآنى فى أعلى طبقاته عندما يعبر عن الدنيا بأنها الأرض فيقول : ﴿ ولكنه أخلد إلى الأرض ﴾ [الأعراف : ١٧٦] ، دون أن يقول : « ولكنه أخلد إلى الدنيا » فالدنيا والأرض صنوان متلازمان لا أمان

لمن ركن إليها ، ولا اطمئنان لمن تسرب حبها إلى قلبه وملكت عليه أقطار نفسه .

ثم انظر : كيف استحكمت حلقات الغواية حول هذا الذى سقت وهو ، وكيف أحاطت به من كل جانب ؟ إنه بعد أن مال إلى الأرض مطمئنا لها قلبه : اتبع هواه ، وما أدراك ما الهوى ! إنه نوازع النفس إلى مسالك الشر . وهوى النفس قد أعيا الطبيب المداوى . ومن ثم فالقرآن الكريم يحذر من اتباع الهوى ، ومن طاعة من اتبع الهوى . قال تعالى فى حق المشركين : ﴿ **إن يتبعون إلا الظن وماتهوى الأنفس** ﴾ [النجم : ٢٣] ، وقال جل شأنه ﴿ **يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله** ﴾ [صٓ : ٢٦] ، وقال جل شأنه : ﴿ **ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم** ﴾ [محمد : ١٦] ، وقال عز من قائل فى حق رسوله ﷺ :﴿ **وما ينطق عن الهوىٰ** ﴾ [النجم : ٣] ، وقرن بين غفلة القلب عن ذكر الله وبين اتباع الهوى فقال تعالى : ﴿ **ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا** ﴾ [الكهف : ٢٨] .

ومن هذه المقدمات .

١ــ آتيناه آياتنا فانسلخ منها .

٢ــ فأتبعه الشيطان. .

٣ــ فكان من الغاوين .

٤ــ ولكنه أخلد إلى الأرض .

٥ــ واتبع هواه .

فإنها تؤدى إلى نتيجة حتمية : إنهاالحال العجيبة التى صورها الله فى « مثل » فقال جل شأنه :« **فمثله كمثل الكلب** » : ولكن الكلب فى أى حال ؟ إن الكلب قد يكون أمينا لا يعرف الخيانة لسيدة ، ولكن هذا أو أمثاله خانوا الله فأذلهم الله . وهذا يذكرنى بحادثة جرت أيام رسول الله ﷺ : فقد مر ذات يوم فوجد رجلا قتيلا بالطريق ،

فسأل : « **من قتل هذا ؟** » قالوا : يارسول الله : إن الرجل سطا على غنم بنى زهرة فخرج عليه كلب الغنم فقتله . فماذا كان تعليق الصادق الأمين عن هذا الحادث ؟ قال فى حق القتيل ثلاث كلمات يجب أن تكون تذكرة وتعيها أذن واعية . قال :« قتل نفسه . **وأضاع دينه . وكان الكلب خيرا منه!** » .

اللهم لا تزغ قلوبنا بعد إذا هديتنا ، واختم لنا بالباقيات الصالحات أعمالنا ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الهداية الربانية لا تستعصي على من أرادها

وصف الله أهل النار بأنهم أضل من الأنعام ، لأنهم عطلوا الانتفاع بحواسهم وقلوبهم التى خلقها الله لهم وجهزهم بها . قال تعالى : ﴿ **ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لايبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام ، بل هم أضل . أولئك هم الغفلون** ﴾ [الأعراف : ١٧٩] .

وهكذا : طلاب الدنيا ، والساعون لها ، المكذبون بأيات الله ، الغافلون المعرضون عن ذكره ، هم دائما فى تعب : فى ليلهم ونهارهم ، وصحتهم ومرضهم ، وغناهم وفقرهم . إن أعطوا فى الدنيا طلبوا المزيد ، وإن لم يعطوه فيها حزنوا وابتأسوا ، وغز الهم والنصب والوصب نفوسهم : لوكان لأحدهم واديان من مال لابتغى ثالثا ، لأن جوفه لا يملأه إلا التراب ومن جاءت النصيحة العالية التى يوجهها العلى العظيم فى حديثه القدسى الجليل : « ابن آدم : **عندك مايكفيك وأنت تطلب ما يطغيك ، لا بقليل تقنع ، ولا من كثير تشبع ، إذا كنت معافى فى بدنك ، آمنا فى سربك ، عندك قوت يومك ، فعلى الدنيا العفاء** » .

قول كريم من رب كريم ، لايعمل به ألا عبد كريم .

النفس تجزع أن تكون فقيرة والفقر خير من غنى يطغيها
وغنى النفوس هو الكفاف فإن أبت فجميع ما فى الأرض لا يكفيها

ويسجل أستاذ الإنسانية الأكبر هذه الحقيقة عن الدنيا ، فيقول : « **إن هذه الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها ، فينظر كيف تعملون . فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء** » .

كذلك يقول عن المال : « **إن هذا المال خضر حلو ، من أخذه بسخاوة نفس : بورك له فيه ، ومن أخذه باستشراف نفس: لم يبارك له فيه ، وكان كالذى يأكل ولا يشبع** » .

إن ميزان الناس إذا كان مبنيا على كثرة المال والعرض ، فهو ميزان مختل ، ومعيار معكوس ، لايمكن أن تقوم به قيم ولا ترجح به كفة . إذا نظر الناس إلى المال وجعلوه المعيار لقيم الناس فحكمهم غير صحيح وغير جائز : فلقد مر رجل غنى عن رسول الله ﷺ فقال الرسول ﷺ لأصحابه : ماتقولون فى هذا ؟ قالوا يارسول الله : هو حرى إذا شفع أن ألا يشفع ، وإذا خطب ألا ينكح ، وإذا قال أن لايستمع له ، فقال رسول الله : « **والله إن هذا خير من ملء الأرض مثل هذا** » .

ما أعدل حكمك يارسول الله ، يا صاحب الخلق العظيم ، يا صاحب القلب الرحيم ، يارافع لواء الوحدانية خفاقا عاليا ! شتان بين الناس والمشهور لديهم أن الدنيا إذا أقبلت على أحد ، خلعت عليه محاسن غيره فإذا أعرضت عنه : سلبته محاسن نفسه

يذل غنى النفس إن قل ماله ويغنى غنى المال وهو ذليل

هذه دروس فى إحدى مدارس القرآن تلقيناها ، وعبر فى ساحة الإسلام عرفناها . ولذلك لم تكن الآيات قاصرة عبرها على واحد بعينه ـ كذلك العالم الاسرائيلى ـ وإنما الحكم شامل وعام لمن توافرت فيه المشخصات ، لذلك ختمت الآية بقوله تعالى : ﴿ **فاقصص القصص لعلهم يتفكرون** ﴾ .

ثم عقب على ذلك القرآن العظيم بهذه الكلمة الموجزة فى مبناها ، الكبيرة فى معناها ، التى تفيد الذم : ﴿ **ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا ، وأنفسهم كانوا يظلمون** ﴾ [الأعراف : ١٧٧] ، حق على من توافرت فيه تلك المقدمات الخمسة أن يكون متبوعا ، والشيطان له تابعا .

ثم إن الله أثبت فى هذه الآيات أن من كانت هذه حاله فهو الظالم لنفسه . لأن الله لايظلم الناس شيئا ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴿ **ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم** ﴾ [الأنفال : ٢٣] ، ﴿ **ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأرض** ﴾ [الأعراف : ١٧٦] ، ذلك لأن الهداية الربانية لا تستعصى على أحد إذا وجد عنده الاستعداد المؤدى إلى الاستجابة لأمر الله ورسوله : فهذا عمير بن وهيب ـ الذى كان يلقب بشيطان قريش ـ يقطع الطريق من مكة إلى المدينة بعد بدر ، والعزم والتصميم يدفعانه إلى قتل رسول الله ﷺ . فماذا حدث بعدما وصل وجلس أمام سيدنا

رسول الله ﷺ ؟ لقد كان عنده ترصد وسبق إصرار على القتل ، ولكنه لما رأى الهدى : استجاب ، فهداه الله ، وأصبح داعية يدعو إلى الله تبارك وتعالى .

لنترك ابن اسحاق يروى بسنده المتصل إلى عروة بن الزبير ، قال عروة : جلس عمير بن وهب مع صفوان بن أمية فى الحجر بعد مصاب أهل بدر بيسير وكان عمير بن وهب شيطانا من شياطين قريش ، وممن كان يؤذى رسول الله ﷺ وأصحابه ، ويلقون منه عناء وهو بمكة ، وكان ابنه وهب ابن عمير فى أسارى بدر ، فذكر أصحاب القليب ومصابهم ، فقال صفوان : والله ما فى العيش بعدهم خير ، قال له عمير : صدقت . أما والله لولا دين على ليس عندى قضاؤه ، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى ، لركبت إلى محمد حتى أقتله ، فإن لى فيهم علة : ابنى أسير فى أيديهم . قال : فاغتنمها صفوان ابن أمية فقال : على دينك أنا أقضيه عنك ، وعيالك مع عيالى ، أواسيهم ما بقوا ، لا يسعنى شىء ويعجز عنهم ، فقال له عمير : فاكتم على شأنى وشأنك ، قال : سأفعل ، قال : ثم أمر عمير بسيفه ، فشحذله وسم ، ثم انطلق حتى قدم المدينة ، فبينا عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر ، ويذكرون ما أكرمهم الله به وما أراهم فى عدوهم ، إذ نظر عمر إلى عمير ابن وهب — ما جاء إلا لشر ، وهو الذى حرش بيننا وحرزنا للقوم يوم بدر ، ثم دخل على رسول الله ﷺ فقال : يانبى الله ! هذا عدو الله عمير بن وهب وقد جاءكم متوحشاً سيفه ، قال : فأدخله على ، قال : فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه فى عنقه ، فلببه بها ، وقال لمن كان معه من الأنصار : ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده ، واحذروا عليه من هذا الخبيث ، فإنه غير مأمون . ثم دخل به على رسول الله ﷺ فلما رآه الرسول ، وعمر آخذ بحمالة سيفه فى عنقه قال : أرسله ياعمر ، ادن يا عمير ، فدنا ، ثم قال : أنعم صباحاً — وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم — فقال رسول الله — ﷺ —: **« قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك ياعمير ، بالسلام : تحية أهل الجنة »** . قال : أما والله يامحمد إن كنت بها لحديث عهد ، قال الرسول ﷺ : **« فما جاء بك يا عمير ؟ »** قال : جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم أحسنوا فيه . قال : **« فما بال السيف الذى فى عنقك ؟ »** قال : قبحها الله من سيوف وهل أغنت شيئاً ؟

قال : **« أصدقنى ما الذى جئت له ؟ »** قال : ما جئت إلا لذلك ، قال الرسول — ﷺ —: **« بل قعدت أنت وصفوان ابن أمية فى الحجر ، فذكرتما أصحاب القليب من قريش ، ثم قلت : لولا دين على وعيال عندى لخرجت حتى أقتل محمداً . فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك ، على أن تقتلنى له ، والله حائل بينك وبين ذلك »** ، فقال عمير : أشهد أنك رسول الله ، قد كنا يارسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء ، وما ينزل عليك من الوحى ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان ، فوالله إنى لأعلم ما أتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذى هدانى للإسلام ، وساقنى هذا المساق . ثم شهد شهادة الحق ، فقال رسول الله — ﷺ —: **« فقهوا أخاكم فى دينه ، وعلموه القرآن ، وأطلقوا أسيره »** ، ففعلوا ، ثم قال : يارسول الله ، إنى كنت جاهداً على إطفاء نور الله ، شديد الأذى لمن كان على دين الله ، وأنا أحب أن تأذن لى فأقدم مكة فأدعوهم إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام ، لعل الله يهديهم ، وإلا آذيتهم فى دينهم كما كنت أوذى فى دينهم .

فأذن له رسول الله — ﷺ — ، فلحق بمكة . وكان صفوان حين خرج عمير بن وهب يقول : أبشروا بوقعة تأتيكم الآن فى أيام تنسيكم وقعة بدر ، وكان صفوان يسأل عن الركبان حتى قدم راكب ، فأخبره عن إسلام عمير ، فحلف أن لا يكلمه أبدا ، ولا ينفعه بنفع أبدا . فلما قدم عمير — رضى الله عنه — مكة أقام بها يدعوا إلى الإسلام ، ويؤذى من خالفه أذى شديداً فأسلم على يديه أناس كثيرون ، وفرح المسلمون حين هداه الله . وقال عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — : خنزير كان أحب إلى منه حين اطلع ، وهو اليوم أحب إلى من بعض بنى وبعد أن قدم عمير بن وهب مكة — بعد أن أسلم — نزل بأهله ، ولم يلتق بصفوان بن أمية ، فأظهر الإسلام مودعاً إليه ، فبلغ ذلك صفوان ، فقال : قد عرفت حين لم يبدأ بى قبل منزله أنه قد ارتكس وصبأ ، فلا أكلمه أبدا ، ولا أنفعه ولا عياله بنافعة ، فوقف عليه عمير وهو فى الحجر وناداه ، فأعرض عنه ، فقال له عمير : أنت سيد من ساداتنا ، أرأيت الذى كنا فيه من عبادة حجر ، وذبح له . أهذا دين ؟ أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسوله .. فلم يجبه صفوان بكلمة .

﴿ **فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيى الموتى ، وهو على كل شىء قدير** ﴾ [الروم : ٥٠] .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

مسالك الشيطان وإغواؤه

فيما مضى تحدثنا عن النتائج التى رتبها الله تعالى على اتباع هداه ، وذكرنا أن الله تعالى نفى عن هذا الفريق : الخوف والحزن والضلال والشقاوة ، ثم عقبنا على ذلك بالكلام عن الفريق الآخر ، وهو المعرض عن ذكر الله ، وتكلمنا عن النتيجة الأولى المترتبة على الإعراض ، وهى أن المعرض عن ذكر الله سالك لطريق الشيطان . وذلك كما جاء فى النص الكريم : ﴿ **ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين** ﴾ [الزخرف : ٣٦] .

واستدعى ذلك أن نبسط الكلام عن الشيطان وإغوائه وطرقه ومسالكه ، وكيف العصمة منه ، وإنما بسطنا الكلام فى هذا الباب ، لأنه الله جلّ فى علاه رسم للبشرية طريقها منذ أن هبط آدم إلى الأرض ، ووضح مناهجها التى تسير عليها ، وذلك فى قوله جلّ شأنه : ﴿ **فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى** ﴾ [طه : ١٢٣] .

ومن يوم أن أدخل آدم الجنة وسكنها . والشيطان يحاول أن يرسل الوساوس ويجد ويجتهد فى إخراج آدم من الجنة . فظهرت عداوته ، واتضحت خصومته لآدم وأبنائه من بعده ، فناسب ذلك أن نبسط الكلام عن الشيطان ومكايده ، وذكر العاقبة الوخيمة المترتبة على السير فى طريقه ، وأن الصالح مع الله هو طريق النجاة . ثم إن إبليس أشهر سلاح المعصية ، وأصر على ذلك واستكبر ، وتولى كبر هذه المسألة عندما أمر بالسجود فأبى ، ثم أخذ يتوعد بنى آدم بالإغواء والإضلال ، والقعود على الصراط لهم ، وسد مسالك الخير أمامهم ، فناسب ذلك التفصيل فى تلك المقال : ﴿ **ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حى عن بينة** ﴾ . وكان هذا نتيجة أولى ترتيب على الإعراض عن ذكر الله ، وهو قوله جل شأنه : ﴿ **نقيض له شيطانا فهو له قرين** ﴾ [الزخرف : ٣٦] .

والآن نستطيع أن نتكلم عن النتيجة الثانية ، وهى قوله جل شأنه : ﴿ **فإن له معيشة ضنكا** ﴾ .

من المعلوم الثابت أن صريح القرآن ومنطوق آياته نفت أربعة أشياء عن متبعي هدى الله ، الذين علموا أن الصلح مع الله هو طريق النجاة ، وهذه الأشياء الأربعة التي نفيت عنهم هي :

١ ـ الخوف .

٢ ـ الحزن .

٣ ـ الضلال .

٤ ـ الشقاوة .

فإذا كانت الآيات في منطوقها تنفي هذه الأربعة عنهم فإنها في مفهومها تثبتها للفريق الآخر ، فيكون المؤدى أن المعرضين عن ذكر الله يعيشون في الخوف والحزن والضلال والشقاوة . وهذه معان ظاهرة من النصوص الكريمة في مفهوم الآيات .

والنتيجة التي نحب أن نتكلم عنها الآن ـ فضلا عن هذه الأمور الأربعة التي ثبتت للمعرضين هي النتيجة الثانية ، بعدما ذكرنا آنفا ، وهي المعيشة الضنك . وليس في الحياة شيء أمر على الإنسان من أن يعيش في ضنك وضيق ، إنه حينئذ يتجشم الأوصاب ، ويتجرع كئوس العذاب ، وماذاك إلا لأنه أعرض عن هدى ربه ، وجعل بينه وبين ذكر الله حجابا مستورا ، فيكون مآله أن يعيش في ضنك عندما يحب خمسا وينسى خمسا : يحب المخلوق وينسى الخالق ، ويحب المال وينسى الحساب ، ويحب القصور وينسى القبور ، ويحب الذنوب وينسى التوبة ، ويحب الدنيا وينسى الآخرة !

يعيش في ضنك عندما لا يعرف الإسلام إلا اسمه ، ولا المصحف إلا رسمه ، وإذا صار همه بطنه ، وقبلته نساءه ، وإذا رأى غيره : حسده ، وإذا توارى عنه : اغتابه ، وإذا صارت السنة عنده بدعة ، والبدعة سنة !

ولقد حذر الرسول ـ ﷺ ـ من ذلك فقال : **« إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حل بها البلاء »** ، قيل ما هن يا رسول الله ؟ قال : **« إذا كان المغنم دولا ، والأمانة مغنما ، والزكاة مغرما ، وأطاع الرجل زوجته ، وعق أمه ، وبر صديقه ، وجفا أباه ، وارتفعت الأصوات في المساجد ، وكان زعيم القوم أرذلهم ، وأكرم الرجل مخافة**

شره ، وشرب الخمور ، ولبس الحرير ، واتخذ القينات والمعازف ، ولعن آخر هذه الأمة أولها ، فليرتقبوا عند ذلك ريحا حمراء أو خسفا ومسخا » رواه الترمذي .

وهكذا يضع الرسول ـ ﷺ ـ هذه الصورة المفصلة يبين فيها حال أي مجتمع ، إذا ما دبت فيه هذه الأمور ، واستشرت فيه تلك الرذائل ، ماذا يكون مصيره ؟

١ ـ حل بهم البلاء .

٢ ـ ريح حمراء .

٣ ـ الخسف والمسخ .

وكل هذه الأمور الثلاثة أو الأربعة تندرج تحت قوله تعالى : **﴿ فإن له معيشة ضنكا ﴾** . وأي ضيق في العيش بعدما يحل البلاء ، وتنتشر الأمراض بالريح الممرضة المزعجة ، وينزل الخسف بالعباد ، ويحل بهم المسخ ؟!

من قرأ هذه السورة الكريمة من سور القرآن ـ وهي سورة **الأعراف** ـ يجدها قد اشتملت على حقائق تاريخية ، ووقائع موثوق بها الأمم أعرضت عن ذكر الله ، فماذا كان مصيرهم ؟ أرسل الله إليهم رسلا مبشرين ومنذرين ، عملوا في معسكر واحد هو معسكر التوحيد ، وانضووا تحت لواء واحد ، هو قول « لا إله إلا الله » . والصورة بالغة الروعة في عرضها لدروس التاريخ ، وشرحها وتفصيلها للأسباب التي أدت بالأمم إلى أن ينزل بهم الخسف والمسخ ، ويحل بهم البلاء والريح الحمراء .. فبعدما ذكر الله قصة آدم وهبوطه إلى الأرض ، بدأ بالحديث عن نوح وقومه ، وكانت العاقبة : **﴿ فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك ، وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ، إنهم كانوا قوما عمين ﴾** [الأعراف : ٦٤] . ثم بعد ذلك ذكر هوداً وقومه ، وكانت النتيجة : **﴿ فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين ﴾** [الأعراف : ٧٢] .

وذكر صالحا وقومه ، ثم كانت النتيجة : **﴿ فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم ، وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين . فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين . فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين ﴾** [الأعراف : ٧٩] .

وذكر لوطا وقومه وكيف دعاهم إلى الإصلاح الاجتماعى ، ونبذ الرذائل ، فكانت النتيجة : ﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا : أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون . فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين . وأمطرنا عليهم مطرا ، فانظر كيف كان عاقبة المجرمين ﴾ [الأعراف : ٨٤] .

وذكر شعيبا وقومه . وكيف دعاهم إلى الإصلاح الاقتصادى والاجتماعى وذكرهم بنعمة الله عليهم ، فماذا كانت النتيجة ؟ ﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا ، قال أولو كنا كارهين . قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ، وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا ، وسع ربنا كل شىء علما ، على الله توكلنا ، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ، وأنت خير الفاتحين . وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين . الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها . الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين . فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم . فكيف آسى على قوم كافرين ﴾ [الأعراف : ٨٨ - ٩٣] .

هذه دروس فى التاريخ قصها الكتاب الحكيم ووقائع أمم مضيت وبقيت شواهدها وآثارها على الأرض . قال تعالى : ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين . وبالليل ، أفلا تعقلون ﴾ [الصافات : ١٣٧ ، ١٣٨] .

وبعدما قص هذه الدروس بين سنة الله النافذة فى خلقه ، وهى ثابتة لا تتخلف ، فقال جل شأنه : ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾ [الأعراف : ٩٦] .

لقد حذر الرسول - ﷺ - من أمور قال فى إحداها : « لم تظهر الفاحشة فى قوم حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم » ، وقال فى ثانيها : « ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ، ولولا البهائم لم يمطروا ، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان » .

والله تعالى يقول فى الحديث القدسى الجليل : « أنا الله لا إله إلا أنا ، مالك الملك ، وملك الملوك ، قلوب الملوك فى يدى ، وإن العباد إذا أطاعونى حولت قلوب ملوكهم

ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة ، وإن العباد إذا عصونى حولت قلوب ملوكهم عليهم بالسخط والنقمة ، فساموهم سوء العذاب ، فلا تشغلوا أنفسكم بالدعاء على ملوككم ، ولكن اشغلوا أنفسكم بذكرى ، والتقرب إلى : أكفكم ملوككم » .

اللهم ثبت قلوبنا على الإيمان والإسلام ووفقنا إلى ما فيه محبتك ورضاك وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

يحذر الرسول - ﷺ - من أمور أخرى تفيد وقوع البلاء بالخلق فيقول : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » .. ولما كانت الخمر أم الكبائر ، فقد كانت كلمات الرسول فيها كأنها الرعود القواصف .. فاسمع إليه يقول : « لعن الله الخمر وشاربها وساقيها ومبتاعها وبائعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه » وزاد : (وآكل ثمنها) .

وقد أنذر الرسول - ﷺ - وأوعد بأمور قد تحدث لقوم عكفوا على المعصية .. فاسمع إلى قوله فى الحديث الشريف : « يبيت قوم من هذه الأمة على طعام وشراب ولهو ولعب ، فيصبحون قد مسخوا قردة وخنازير ، وليصيبنهم خسف وقذف ، حتى يصبح الناس فيقولون : خسف الليلة ببنى فلان ، وخسف الليلة بدار فلان خواص ، ولترسلن عليهم حجارة من السماء كما أرسلت على قوم لوط ، على قبائل فيها وعلى دور ، ولترسلن عليهم الريح العقيم التى أهلكت عادا على قبائل فيها وعلى دور ، بشربهم الخمر ، ولبسهم الحرير ، واتخاذهم القينات ، وأكلهم الربا ، وقطيعتهم الرحم » رواه أحمد وابن أبى الدنيا والبيهقى .

ويزيد الرسول - ﷺ - هذه الأمور تحذيرا فيقول : « من زنى أو شرب الخمر نزع الله منه الإيمان كما يخلع الإنسان القميص من رأسه » .

والذى يتصفح السنة المطهرة وينقب فى بطونها يجد من الدعوة إلى الإصلاح والتحذير من المعاصى التى تكون سببا فى إنزال البلاء والمعيشة الضنك .. يجد ما يحفزه ويدعوه إلى أن يقف أمام الهدى النبوى سامعا ومطيعا وملبيا ، وشاكرا لرسول الله - ﷺ - فضله . وهذا حديث عندما قرأته شعرت كأننى أغدو وأروح كالطير يمشى من الألم وهو مذبوح . قال رسول الله - ﷺ - : « إذا استحلت أمتى خمسا فعليهما الدمار :

إذا ظهر التلاعن ، وشربوا الخمور ، ولبسوا الحرير ، واتخذوا القينات ، واكتفى الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء » .

وفى شرب الخمر تنتج الأضرار الآتية :

١ ـ تنتزع من الشارب أنوار الإيمان حين شربه .

٢ ـ استحق لعنة الله وطرده من رحمته .

٣ ـ شربها يدعو إلى جلب الهموم وتضييق الأرزاق .

٤ ـ لا يقدم على شربها إلا العاصى الذى لا يؤمن بالله واليوم الآخر .

٥ ـ شربها يجر إلى الوقوع فى ارتكاب المعاصى كلها .

٦ ـ يعذب الله الشارب لها يوم القيامة .

٧ ـ حرم الله عليه الجنة إذا شربها مستحلا لها .

٨ ـ عقاب شارب الخمر كعقاب عابد الصنم .

٩ ـ يحشر يوم القيامة شديد الظمأ .

١٠ـ لا يقبل الله منه عبادة أربعين يوما .

١١ـ شارب الخمر يستحق الإهانة والازدراء والتحقير والجلد كما قال الرسول ـ ﷺ ـ: « **لا تسلموا على شربة الخمر** » .

١٢ـ شارب الخمر يحل عليه غضب الله ، ولو مات فى هذه الحالة حرم من ثواب الله ورحمته .

١٣ـ السكران إذا مات على حالته يعذبه الله بسكره ويذوق مرارة فعله هذا فى قبره .

١٤ـ شرب الخمر إحدى الخصال المدمرة التالفة المذهبة للثروة المضيعة للعقل ، الجالبة للنقمة .

وكل هذا مندرج تحت قوله تعالى : ﴿ **فإن له معيشة ضنكا** ﴾ ومن ثم فإن

الرسول ـ ﷺ ـ فى نصحه ينهى عن هذه الموبقات . استمع إليه وهو ينصح أبى الدرداء ، فيقول : « **لا تشرك بالله شيئا ، وإن قطعت ، وإن حرقت ، ولا تترك صلاة مكتوبة متعمدا ، فمن تركها متعمدا فقد برئت منه الذمة . ولا تشرب الخمر ، فإنها مفتاح كل شر** » .. وقد بلغ من حذر الصحابة وخوفهم من أن يقترفوا شيئا من هذه الأشياء المؤدية إلى جلب غضب الله واستحقاق نزول نقمته ـ بلغ من حذرهم فى هذا المجال أن بعضهم كان يسأل الرسول ـ ﷺ ـ عن الخير ليفعله ، وبعضهم يسأله عن الشر ليجتنبه ، فإن من لا يعرف الشر أحرى أن يقع فيه .. فهذا اجتماع بين بعض الأصحاب ، بعد وفاة الرسول ـ ﷺ ـ . ولنذكر الحديث الذى دار فيه حتى نقف على مدى حرص هذا المجتمع على النظافة بأوسع معانيها : نظافة القلب ونظافة النفس ، ونظافة الجوارح .. وإليك هذه الصورة الحقيقة :

روى سالم بن عبد الله بن أبيه : أن أبا بكر وعمر وأناسا جلسوا بعد وفاة النبى ـ ﷺ ـ فذكروا أعظم الكبائر ، فلم يكن عندهم منها علم ، فأرسلونى إلى عبد الله بن عمر أسأله ، فأخبرنى أن أعظم الكبائر : شرب الخمر ، فأتيتهم فأخبرتهم ، فأنكروا ذلك ، ووثبوا إليه جميعا ، حتى أتوه فى داره فأخبرهم أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « **إن ملكا من ملوك بنى إسرائيل أخذ رجلا فخيره بين أن يشرب الخمر أو يقتل نفسا أو يزنى أو يأكل لحم خنزير أو يقتلوه . فاختار الخمر ، وإنه لما شرب الخمر لم يمتنع من شئ أرادوه منه** » . وأن الرسول ـ ﷺ ـ قال : « **ما من أحد يشربها فلا تقبل له صلاة أربعين ليلة . ولا يموت وفى مثانته منها شيء إلا حرمت بها عليه الجنة ، فإن مات فى أربعين ليلة : مات ميتة جاهلية** » .

وفى هذا المعنى يروى عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال : « **اجتنبوا أم الخبائث ، فإنه كان رجل ممن كان قبلكم يتعبد ، ويعتزل الناس ، فعلقته امرأة فأرسلت إليه خادما : إنا ندعوك لشهادة ، فدخل ، فطفقت كلما يدخل بابا أغلقته دونه ، حتى إذا أفضى إلى امرأة وضيئة جالسة وعندها غلام وباطية فيها خمر ، فقالت إنا لم ندعك لشهادة ، ولكن دعوتك لتقتل هذا الغلام أو تقع على ، أو تشرب كأسا من خمر ، فإن أبيت صحت بك وفضحتك ، قال : فلما**

رأى أنه لابد له من ذلك قال : اسقنى كأسا من الخمر ، فسقيته كأسا من الخمر . فقال : زيدينى ، فلم تزل حتى وقع عليها ، وقتل النفس » .

فاجتنبوا الخمر ، فإنه والله لا يجتمع إيمان وادمان خمر فى صدر رجل أبدا ، وليوشكن أحدهما أن يخرج صاحبه .

ويستمر الرسول - ﷺ - فى بيانه وارشاده فى تنظيف المجتمع ، والأخذ بيده إلى بر السعادة ، وتحذيره من الوقوع فى المحذورات ، فيدلى بهذا الإنذار الشديد الحاسم فيقول - ﷺ -: « **ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولا ينظر إليهم ، ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك كذاب وعائل مستكبر** » ويزيد الرسول - ﷺ - فى بيان هذه الموبقات وأنها تبغض صاحبها عند الله فيقول : « **أربعة يبغضهم الله : البياع الحلاف ، والفقير المختال ، والشيخ الزانى ، والإمام الجائر** » .

ومن الموبقات التى تورث صاحبها غضب الله ، ما جاء فى قول الرسول - ﷺ -: « **إياكم وعقوق الوالدين ، فإن ريح الجنة يوجد من مسيرة ألف عام ، والله لا يجدها عاق ولا قاطع رحم ، ولا شيخ زان ، ولا جار إزاره خيلاء ، وإنما الكبرياء لله رب العالمين** » .

« وقد حذر الرسول - ﷺ - من إفشاء العذاب بالأمة ما لم يفش فيهم ولد الزنا ، فإذا فشا فيهم ولد الزنا فأوشك أن يعمهم الله بعذاب » رواه أحمد ، وقال أيضا : « **إذا ظهر الزنا والربا فى قرية فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله** » رواه الحاكم .

واسمع إليه - ﷺ - وهو يدعو إلى تنظيف الأسرة من أن تحل بها الداء الوبيل فيقول حين نزلت آية الملاعنة : « **أيما امرأة دخلت على قوم من ليس فيهم فليس من الله فى شىء ، ولن يدخلها الله جنته . وأيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه احتجب منه يوم القيامة وفضحه على رؤوس الأولين والآخرين** » رواه أبو داود والنسائى وابن حبان .

وها هو ذا الصحابى الجليل ابن مسعود يقول : « سألت رسول الله - ﷺ -: أى الذنب أعظم عند الله ؟ قال : **أن تجعل لله ندا وهو خلقك** . قلت : إن ذلك لعظيم ، ثم أى ؟ قال : **أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك** ، قلت : ثم أى ؟ قال : **أن تزانى

حليلة جارك** » رواه البخارى ومسلم ورواه الترمذى والنسائى . يقول الله تعالى : ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ، ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا يزنون .. ومن يفعل ذلك يلق أثاما . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا** ﴾ [الفرقان : ٦٨] .

وفى حديث جامع بديع للرسول - ﷺ - بيانا على الأمة يحذر به من ذنوب سماها بالموبقات - أى المهلكات - فيقول الرسول - ﷺ -: « **اجتنبوا السبع الموبقات** » ، قيل : يا رسول الله وما هن ؟ قال : « **الشرك بالله والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل مال اليتيم وأكل الربا ، والتولى يوم الزحف . وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات** » رواه البخارى ، ومسلم ، وأبو داود والنسائى .

ثم استمع إلى رسول الله - ﷺ - وهو يحدثنا عن مرض من أخطر الأمراض الاجتماعية ، يعتبر الآن فاكهة المجالس بين الناس ، ومع كونها فاكهة فاسدة وخبيثة إلا أن سوقها رائجة .. فما أكثر المجالس التى تقدم فيها هذه الأطباق من الفاكهة الفاسدة . ألا وهى « الغيبة » ! والغيبة هى ذكر أخاك بما يكره وهو غائب . فإن كان فيه . فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهته .. يقول صلوات الله وسلامه عليه : « **إن الدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم عند الله فى الخطيئة من ست وثلاثين زنية يزنيها الرجل . وإن أربى الربا عرض الرجل المسلم** » رواه ابن أبى الدنيا . وقال أيضا : أشد الربا وأربى الربا وأخبث الربا : انتهاك عرض المسلم وحرمته » .

اللهم إنا نسألك أن تحفظنا مما حفظت منه عبادك الصالحين وأوليائك المتقين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

استمع معى أخى المسلم إلى هذا القاموس الجامع من دروس التربية الاجتماعية فى صورة استفهام وجواب ، ليكون الأسلوب الحكيم الحافز للهمة المستثير للعزائم .. اسمع إليه - ﷺ - وهو يسأل أصحابه : « **أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، فقال : المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وزكاة ، ويأتى وقد شتم هذا وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه ، وأخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح فى النار** » رواه مسلم والترمذى .

وفى حديث جامع آخر يقول - ﷺ -: **«خمس ليس لهن كفارة: الشرك بالله، وقتل النفس بغير حق، وبهت مؤمن، والفرار من الزحف، ويمين صابرة يقتطع بها مالا بغير حق»** رواه أحمد.

فإذا استقرأنا أحاديث الرسول - ﷺ - فى الفاكهة الفاسدة التى عميت بها البلوى، وسودت صفحات العباد عند الله، وهتكت الأسرار، وأشاعت مستور الأمور، وافترت على الناس كذبا وبهتانا .. فما هى النتائج التى نستطيع أن نخرج بها من مجموعة هذه الأحاديث؟

يقول الأستاذ مصطفى محمد عمارة: إنها ست عشرة نتيجة تجرها الغيبة على صاحبها:

١ - يرتكب حراما.

٢ - فعل ما هو أكثر عقابا من الربا.

٣ - استطعم لحم أخيه وأساغه.

٤ - لم ينفع صومه.

٥ - كأنه أكل ما هو أنتن من الجيفة.

٦ - يعذب فى النار بأكل النتن القذر.

٧ - لا يغفر الله له حتى يعفو عنه المغتاب.

٨ - ينال عقاب الله فى قبره.

٩ - تذهب أنوار إيمانه.

١٠- يقابل الله بلا حسنة ومحملا بالخطايا.

١١- يستمر عذابه فى النار.

١٢- يذوب جسمه حتى يحقق غيبته.

١٣- لا يجد لفعاله فدية (أى كفارة).

١٤- يشرب شرب عرق أهل جهنم.

١٥- يحبس على قنطرة جهنم مدة طويلة.

١٦- لا ينصره الله، ولا يساعده دنيا وأخرى.

أعلمت يا أخى الأسباب الدنيئة والأغراض الحقيرة، التى تدفع صاحبها إلى الغيبة؟

يجيب على هذا السؤال حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالى رحمه الله فيقول:

اعلم أن حد الغيبة أن تذكر أخاك بما يكره لو بلغه: سواء ذكرته بنقص فى بدنه، أو نسبه أو فى خلقه، أو فى فعله، أو فى قوله، أو فى دينه، أو فى دنياه، حتى فى ثوبه، وداره، ودابته.

أما البدن: فكذكرك العمش والحول والقرع، والقصر، والسواد، والصفرة. وجميع ما يتصور أن يوصف به مما يكره كيفما كان. وما النسب: فبأن تقول: أبوه نبطى، أو خسيس، أو شىء مما يكرهه كيفهما كان. وأما الخلق: فبأن تقول: هو سىء الخلق، بخيل، متكبر، مراء شديد الغضب، جبان، عاجز، ضعيف القلب، متهور، وما يجرى مجراه، وأما فى أفعاله المتعلقة بالدين، فكقولك: هو سارق، أو كذاب، أو شارب خمر، أو خائن، أو ظالم، أو متهاون بالصلاة أو الزكاة، أو لا يحسن الركوع، أو السجود، أو لا يحترز عن النجاسات، أو ليس بارا بوالديه، أو لا يضع الزكاة موضعها، أو لا يحسن قسمتها، أو لا يحرس صومه عن الرفث والغيبة والتعرض لأعراض الناس.

وأما فعله المتعلق بالدنيا: إنه قليل الأدب، متهاون بالناس، أو لا يرى لأحد على نفسه حقا، أو يرى لنفسه الحق على الناس، أو أنه كثير الكلام، وكثير الأكل، نؤوم، ينام فى غير وقت النوم، ويجلس فى غير موضعه. وأما فى ثوبه، فكقولك: إنه واسع الكم، طويل الذيل، وسخ الثياب.

وذكر الغير ثلاثة أقسام: الغيبة، والبهتان، والإفك. فالغيبة: أن تقول ما فيه. والبهتان: أن تقول ما ليس فيه. والإفك: أن تقول ما بلغك.

ثم يستطرد الإمام الغزالى قائلا: والأسباب الباعثة على الغيبة هى:

١ - أن يشفى الغيظ.

٢ - موافقة الأقران، ومجاملة الرفقاء، ومساعدتهم على الكلام.

٣ ـ أن يستشعر من إنسان أنه سيقصده ، ويطول لسانه عليه ، أو يقبح حاله عند محتشم أو يشهد عليه بشهادة .

٤ ـ أن ينتسب إلى شيء فيريد أن يتبرأ منه فيذكر الذى فعله .

٥ ـ إرادة التصنع والمباهاة .

٦ ـ الحسد : فيريد زوال نعمة من هو أحسن منه .

٧ ـ اللعب ، والهزل ، والمطايبة ، وتزجية الوقت بالضحك .. فيذكر عيوب غيره بما يضحك الناس على سبيل المحاكاة ، ومنشؤه التكبر والعجب .

٨ ـ السخرية والاستهزاء والاحتقار له .

وجل جلال الله إذ يقول : ﴿ **يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن . إن بعض الظن إثم ، ولا تجسسوا ، ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه ، واتقوا الله إن الله تواب رحيم** ﴾ [الحجرات : ١٢] .

• وقفة اعتبار وعظة •

وبعد هذا الحشد النبوى من الأحاديث الشريفة ، وهذه الإنذارات الحاسمة القاطعة ، نجد لزاما علينا أن نقول : إن الإعراض عن ذكر الله ظهر لنا جليا فى ناحيتين : أمم عصت أنبياءها وكذبت بلقاء ربها ، وهذا ما ذكرناه فى دروس القرآن الكريم ، وهو يقص علينا من أنباء ما قد سبق ، ويقول جل جلاله فى ذلك : ﴿ **تلك القرى نقص عليك من أنبائها . ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل ، كذلك يطبع الله على قلوبهم الكافرين . وما وجدنا لأكثرهم من عهد ، وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين** ﴾ .

وإذا كان الرسول ـ ﷺ ـ قد ساق لنا هذا الحشد الكبير من الإنذارات والتوجيهات من دروس التربية النبوية ، فإنه يبين لنا صورة أخرى من صور الإعراض عن ذكر الله ، وهى اقتراف المعاصى ، وفعل الموبقات . كما ذكر فى الأحاديث الشريفة السابقة لرسول الله ـ ﷺ ـ . وكلا الإعراضين فى صورته يحذر منه الإسلام وينهى عن الوقوع فيه ، لأن الإنسان العاقل هو الذى يعتبر بحال الماضين من الأمم ، ويأخذ من أحداثهم عبرة ودرسا : ﴿ **أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون** ﴾ [السجدة : ٢٦] .

وهكذا يستمر الكتاب العزيز فى استنتاج العبر فى أحداث أمم أدرجت فى أكفان القبر ، وأتبعها العذاب فطواها فى ذمة التاريخ . استمع إلى قول الله تعالى تعليقا على ما حدث لقوم لوط : ﴿ **ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون** ﴾ . ثم استمع التعقيب فى سورة الذاريات على القصة نفسها : ﴿ **وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم** ﴾ [الذاريات : ٣٧] ، وكذلك فى سورة [القمر] يعقب على ما حدث لقوم نوح : ﴿ **ولقد تركناها آية فهل من مدكر** ﴾ [القمر : ١٥] . ثم اقرأ سورة [الشعراء] تجد تعقيب القرآن على أحداث الأمم بعدما حل بها ما حل من عقاب الله تجد هذه الآية تنادى وتقول : ﴿ **إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾ .

ثم إن الإذاعة الربانية لا تنفك تحذر وتنذر : ﴿ **أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا**

بياتا وهم نائمون . أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون . أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون ﴾ [الأعراف : ٩٧ – ١٠٠] .

إن الإنسان البصير وهو يتنقل مع الحوادث فى المشهد القرآنى الرائع لا يستطيع أن يملك قلبه من الخفقان وأعصابه من الرعدة وحواسه من القشعريرة التى تنتابه : أحداث جسام ، وعبر عظام ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ [الفجر : ١٤] . ﴿ فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ [العنكبوت : ٤٠] .

وجل جلال الله إذا يقول : ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا . ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ [طه : ١٢٣ – ١٢٤] .

وهكذا يكون الصلح مع الله .. هو طريق النجاة .

فاللهم اهدنا لأحسن الأعمال فإنه لا يهدى لأحسنها إلا أنت ، وثبت قلوبنا على الإيمان والإسلام ، فإنك بالإجابة جدير وعلى كل شىء قدير وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

من النتائج المترتبة على الإعراض عن ذكر الله : مصير المعرض يوم القيامة .. كيف يحشر بين الناس ، وماذا يقول ، وبأى شىء يرد عليه .

كانت النتيجة الأولى المترتبة على الإعراض قوله جل شأنه : ﴿ نقيض له شيطانا فهو له قرين ﴾ [الزخرف : ٣٦] ، وجاءت النتيجة الثانية وهى قوله جل شأنه : ﴿ فإن له معيشة ضنكا ﴾ . وها نحن أولاء أمام أخطر النتائج المترتبة على ذلك ، وهى موقفه من الحشر يوم يقوم الناس لرب العالمين . ذلك لأن النتائج الماضية كانت فى دار الدنيا .

أما هذه النتيجة : ففى دار الآخرة التى لا نهاية بعدها ، وفى يوم وصفه الله بأوصاف

تنخلع لها القلوب ، وتقشعر من هولها النفوس : ﴿ واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله . ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ [البقرة : ٢٨١] . ﴿ فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ . ﴿ فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا . السماء منفطر به ، كان وعده مفعولا ﴾ [المزمل : ١٧] . ﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد ﴾ [الحج : [illegible]] .

إنه الطامة الكبرى : ﴿ يوم يتذكر الإنسان ما سعى ﴾ [النازعات : ٣٥] . وإنه الصاخة : ﴿ يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه . لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ [عبس : ٣٥] . وإنه الساعة : ﴿ بل كذبوا بالساعة ، وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا ﴾ [الفرقان : ١١] . وإنه الحاقة : ﴿ وما أدراك ما الحاقة ﴾ [الحاقة : ٣] . وإنه القارعة : ﴿ وما أدراك ما القارعة يوم يكون الناس كالفراش المبثوث . وتكون الجبال كالعهن المنفوش ﴾ [القارعة : ٥] . وإنه الغاشية : ﴿ هل أتاك حديث الغاشية ﴾ [الغاشية : ١] . وإنه يوم الحسرة : ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون ﴾ [مريم : ٣١] ، وإنه يوم البعث : ﴿ وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ﴾ [الروم : ٥٦] ، وإنه يوم الآزفة : ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين . ماللظالمين من حميم ولا شفيع يطاع يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾ وإنه اليوم الموعود : ﴿ والسماء ذات البروج واليوم الموعود ﴾ [البروج : ١٣] ، وإنه اليوم الآخر : ﴿ إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ [النساء : ٥٩] ، وإنه يوم التلاق : ﴿ لينذر يوم التلاق . يوم هم بارزون . لا يخفى على الله منهم شىء . لمن الملك اليوم لله الواحد القهار . اليوم تجزى كل نفس بما كسبت . لا ظلم اليوم ، إن الله سريع الحساب ﴾ [غافر : ١٧] ، وإنه يوم الوعيد : ﴿ ونفخ فى الصور ، ذلك يوم الوعيد . وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد . لقد كنت فى غفلة من هذا ، فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾ [ق : ٢٢] . وإنه يوم التناد : ﴿ وياقوم إنى أخاف عليكم يوم التناد . يوم تولون مالكم من الله من عاصم ، ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ [غافر : ٣٣] ، وإنه يوم القيامة :

﴿ لا أقسم بيوم القيامة . ولا أقسم بالنفس اللوامة ﴾ [القيامة : ١ - ٢] ، وإنه يوم العرض على الله : ﴿ وعرضوا على ربك صفا . لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ﴾ [الكهف : ٤٨] .

أسماء تعددت لمسمى واحد ، وما ذاك إلا لعظم هوله ، وكبر شأنه ، وجليل خطره ، وعظيم ما سيجرى فيه .. إنه اليوم الذى سيقف فيه الإنسان أمام محكمة العدل الإلهية الكبرى ، ليسأل عما قدمت يداه : ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين . عما كانوا يعملون ﴾ [الحجر : ٩٢ ، ٩٣] ، ولا حجة ولا عذر : ﴿ هذا يوم لا ينطقون . ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ [المرسلات : ٣٥ ، ٣٦] .

لقد جفت الأقلام ، وطويت الصحف .. إن قلت : لم لم يصلنى إنذار بهذا اليوم وبتلك المحاكمة ؟ فالإنذار تقرأه فى صلواتك . فى كل ركعة ، وفى فاتحة الكتاب : « مالك يوم الدين » . فإن قلت : فهل أستطيع أن أحضر اليوم شهودا ؟ كان الجواب : ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون . يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق . ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾ [النور : ٢٤ ، ٢٥] ، فإن قلت : هل أستطيع أن أوكل من يدافع عنى ؟ كان الجواب : ﴿ ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا اقرأ كتابك . كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾ [الإسراء : ١٣ ، ١٤] . فإن قلت : هل أستطيع أن أستأنف الحكم ؟ كان الجواب : ﴿ والله يحكم لا معقب لحكمه . وهو سريع الحساب ﴾ . ﴿ ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد ﴾ .

ولسوف نعرض عليكم نماذج من الأسئلة أحضرها لنا نبى الله محمد ـ ﷺ ـ لنكون على علم بها فى الدنيا ﴿ من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة ﴾ و ﴿ من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله ﴾ ، وحتى تستعد للإجابة على هذه الأسئلة وتعمل لها ، سيقول لك الحاكم الأعلى : « شبابك فيم أبليته ؟ وعمرك فيم أفنيته ؟ ومالك من أين اكتسبته ؟ وفيم أنفقته ؟ وعلمك ماذا صنعت فيه ؟ وسيقول لك الحاكم الأعلى جل فى علاه : عبدى مرضت فلم تعدنى ، وتقول : وكيف أعودك وأنت الله رب العالمين ؟ فيقول لك : مرض عبدى فلان فلم تعده ، أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده ؟ عبدى ! استطعمتك فلم تطعمنى . وتقول : وكيف أطعمك وأنت

الله رب العالمين ؟ فيقول لك : استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه . أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى ؟ عبدى ! استسقيتك فلم تسقنى ، فتقول : وكيف أسقيك وأنت الله رب العالمين ؟ فيقول لك مولانا : استسقاك عبدى فلان فلم تسقه . أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندى » .

فهل أحضرت الجواب على هذه الأسئلة ؟!!

إن اليوم عمل ولا حساب ، وغدا حساب ولا عمل ، ويوم تتطاير الصحف على العباد سيكون مشهدا مليئا بالخوف والجلال .. فها هو من يأخذ الكتاب بيمينه يصيح : ﴿ هاؤم اقرأوا كتابيه ﴾ وها هو ذا الذى يأخذ الكتاب بشماله يقول : ﴿ يا ليتنى لم أوت كتابيه ﴾ ويقول الأول : ﴿ إنى ظننت أنى ملاق حسابيه ﴾ [الحاقة : ٢٠] . ويقول الثانى : ﴿ ولم أدر ما حسابيه ﴾ [الحاقة : ٢٤] ، فيكون مصير الأول : ﴿ فهو فى عيشة راضية . فى جنة عالية ، قطوفها دانية . كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية ﴾ [الحاقة : ٢٤] . ويكون موقف الثانى ندما وحسرة حيث لا ينفع الندم ، ولا تجدى الحسرة : ﴿ ياليتها كانت القاضية . ما أغنى عنى ماليه . هلك عنى سلطانيه ﴾ [الحاقة ٢٩] ! ويكون مصيره : ﴿ خذوه فغلوه . ثم الجحيم صلوه . ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه . إنه كان لا يؤمن بالله العظيم . ولا يحض على طعام المسكين ﴾ [الحاقة : ٣٤] !

ثم يأتى العذاب بنوعيه : النفسانى والجسمانى : ﴿ فليس له اليوم هاهنا حميم ﴾ [الحاقة : ٣٥] . هذا عذاب النفس ، وما أشد وقعه وألمه ولوعته ! إن الفؤاد لينفطر عندما يسمع هذه الآية ، وإن النفس لتسيل مرارة لوقعها .. ثم يأتى العذاب الجسمانى ﴿ ولا طعام إلا من غسلين . لا يأكله إلا الخاطئون ﴾ [الحاقة : ٣٧] .

وإن هذه السورة ـ [سورة الحاقة] فى آياتها الحاسمة القاطعة ، الشديدة القوارع القاطعة الزواجر ـ لتذكرنى بموقف عمر رضى الله عنه إذ يقول : أول ما دخل الإسلام فى قلبى سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقرأ من سورة « الحاقة » فقلت فى نفسى : إن هذا الكلام كلام شاعر ، فإذا هو يقرأ آخرها ﴿ وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ﴾ [الحاقة : ٣٥] .

فقلت فى نفسى : إنه قول كاهن ، فسمعته يقرأ فى آخرها : ﴿ ولا بقول كاهن ، قليلا ما تذكرون ﴾ [المعارج : ٤٢] ، فقلت : إنه قول محمد ، فسمعته يقرأ ﴿ تنزيل من رب العالمين . ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ [٤٣ - ٤٧] .

وكانت الخيوط الأولى من فجر إسلام الفاروق قد أخذت تملأ أفق قلبه ، وتغزو بأضوائها الآلاء أعماق نفسه : فبعد أن كان جبار الجاهلية أعز الله به الدعوة فأصبح عملاق الإسلام . إنه القرآن الذى أخرج أمما من ظلمات الجهالة إلى نور العلم ، وهبت به شعوبا من موتها لتقود سفينة العالم الحائرة فى خضم المحيط إلى بر النجاة .

اللهم آت قلوبنا تقواها وزكها أنت خير من زكاها . وصل الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الاعتبار بأهوال القيامة

إليك أخى المسلم قول رسول الله ـ ﷺ ـ فى موعظة له يحذر من أهوال يوم القيامة :

ففى حديث رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى يقول صلوات ربى وسلامه عليه : « يأيها الناس : إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلا : ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين ﴾ [الأنبياء : ١٠٤] ، ألا وإن أول الخلائق يكسى : إبراهيم عليه السلام ألا وإنه سيجاء برجال من أمتى فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول : يا رب : أصحابى فيقول : إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك . فأقول كما قال العبد الصالح : ﴿ وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم . فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شىء شهيد . إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ [المائدة : ١١٧] ، قال : فيقال لى إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم » !

ـ ما أهول هذا اليوم ، وما أشد خطره على النفس إذا خالفت وانحرفت .. فها هم أولاء قوم غيروا وبدلوا بعد رسول الله ـ ﷺ ـ فلم يسعه بصددهم فى نهاية المطاف إلا أن فوض الأمر إليه : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ [المائدة : ١١٨] .

وتأمل معنى ختام هذه الآية وتذييلها ، وكيف ختمت بالعزة و حكمة .. إذ لا يقدر على العذاب إلا العزيز الذى لا يغلب ولا يقهر فإذا ما غفر وعفا : فمغفرته وعفوه لا عن طريق العبث ، وإنما هو مقتضى الحكمة الإلهية المطلقة ، فجعل التذييل مناسب لسياق الآية ، فماذا كان جواب الله ؟ قال تعالى : ﴿ هذا اليوم ينفع الصادقين صدقهم ، لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك الفوز العظيم ﴾ [المائدة : ١١٩] .

يا ابن آدم

أنت الذى ولدتك أمك باكيا   والناس حولك يضحكون سرورا
فاعمد إلى عمل تكون إذا بكوا   فى يوم موتك ضاحكا مسرورا

ماذا يكون موقف المعرض عن ذكر الله إذا جمع بين عمى البصر وعمى البصيرة ؟ وماذا يكون موقفه من قول الرسول - ﷺ -: « **يحشر الناس يوم القيامة على أصناف ثلاثة : صنف مشاه ، وصنف ركبانا ، وصنف على وجوههم . قيل يا رسول الله : وكيف يمشون على وجوههم ؟ قال : إن الذى أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم ، أما إنهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك** » رواه الترمذى .

قارن بين ما اشتمل عليه هذا الحديث من أصناف الناس ، ثم بادر بأن تأخذ لنفسك موقف الذين يحشرون إلى الرحمن وفدا غرا محجلين ، وجوههم ناضرة ، إلى ربها ناظرة ، ومسفرة ضاحكة مستبشرة :

دنياك ساعات سراع الزوال   وإنما العقبى خلود المآل
فهل تبيع الخلد يا عاقلا   وتشترى دنيا المنى والضلال ؟

ثم تصور هذا الموقف من مشاهد يوم القيامة ، والذى يقول فيه رب العزة : ﴿ **كل نفس بما كسبت رهينة : إلا أصحاب اليمين . فى جنات يتساءلون . عن المجرمين . ماسلككم فى سقر . قالوا لم نك من المصلين . ولم نك نطعم المسكين . وكنا نخوض مع الخائضين . وكنا نكذب بيوم الدين . حتى أتانا اليقين . فما تنفعهم شفاعة الشافعين** ﴾ [المدثر : ٣٨ - ٤٨] .

ثم يعبر عن هذا كله من : ترك الصلاة ، وإطعام المساكين ، وما يليه من الخوض مع الخائضين والتكذيب بيوم الدين . يعبر عنه إعراض عن التذكرة فيقول : ﴿ **فما لهم عن التذكرة معرضين** ﴾ [المدثر : ٤٩] ، ثم تأتى العدسة المشخصة لتصور الموقف الذى بلغ هذا فإذا هو مرعب ومؤسف ومحزن : ﴿ **كأنهم حمر مستنفرة . فرت من قسورة** ﴾ . فتصور : مجموعة من الحمر تنفر أمام أسد شجاع مقدام ، ماذا يكون شدة

نفورها ؟ إنه من الشدة بمكان لا يسامى ، فهلا وقفت على هذه الحقائق ؟! هلا كنت من المصلين ، ومن الذين يطعمون المسكين ؟ وهلا اجتنبت الخوض مع الخائضين وهلا صدقت وأيقنت بيوم الدين ، وظللت على هذا حتى أتاك الموت والوعد اليقين .

إن كنت يا أخى قد وفيت بكل هذا فقدم الشكر لله وقل : اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك ، فلك الحمد ولك الشكر . وإن كنت مقصرا فى أحد هذه الأمور فلا تلومن إلا نفسك ، وبادر بالعمل الصالح كما قال السيد الجليل سيدنا رسول الله - ﷺ -: « **بادروا بالأعمال الصالحة سبعا هل تنظرون إلا فقرا منسيا ، أو غنى مطغيا ، أو مرضا مفسدا ، أو هرما مفندا أو موتا مجهزا ، أو الدجال ، فشر غائب ينتظر أو الساعة ، والساعة أدهى وأمر** » .

وقف عند قول رسول الله - ﷺ -: « **أو موتا مجهزا** » ، وتصور الموت وهو ينقض على ابن آدم المسكين انقضاض السباع المفترسة على فريستها ، ثم ينقله بعد الغذاء والنضارة ورونق الحياة والتنسم فى طيب روائحها .. ينقله تحت أسفل الثرى جسدا هامدا ورفاتا سحيقا ، وصعيدا جرزا .. ما هذا الهول؟

أتيت القبور فناديتها   فأين المعظم والمحتقر ؟
وأين المدل بسلطانه   وأين المزكى إذا ما افتخر ؟

والجواب :

تساووا جميعا فما مخبر   وماتوا جميعا ومات الخبر
تروح وتغدوا بنات الثرى   فتمحو محاسن تلك الصور
فيا سائل عن أناس مضوا   أمالك فيما مضى معتبر ؟

يالله ! يالله ! إنه رهيب ! ماذا بعد الموت ؟ « القبر إما روضة من رياض الجنة وإما حفرة من حفر النار » ! فهل أعددت الزاد لليلة صبحها يوم القيامة ؟ وهلا استمعت من رسول الله - ﷺ - حيث يقول : « **تجمعون يوم القيامة فيقال : أين فقراء هذه الأمة ومساكينها ؟ فيقومون ، فيقال لهم : ماذا عملتم ؟ فيقولون : ربنا ابتليتنا فصبرنا . ووليت الأموال والسلطان غيرنا ، فيقول الله عز وجل ، صدقتم ، قال : فيدخلون الجنة قبل الناس ، وتبقى شدة الحساب على ذوى الأموال والسلطان . قالوا : فأين**

المؤمنون يومئذ ؟ قال : توضع لهم كراسى من نور ، ويظلل عليهم الغمام ، يكون ذلك اليوم أقصر على المؤمنين من ساعة من نهار » .

هلا أعددت الزاد ليوم يقول الله فيه : « أين المتحابون بجلالى ، اليوم أظلهم بظل يوم لا ظل إلا ظلى » ؟! هلا أعد الزاد ليوم يقول الله فيه : « أين أهل الفضل ؟ فيقومون - وهم يسير - فيقال لهم : ادخلوا الجنة سراعاً ، فتقول لهم الخلائق : لم تسرعوا إلى دخول الجنة ؟ فيقولون لهم : لأننا أهل الفضل ، فتقول الخلائق : وما فضلكم ؟ فيقولون : كنا إذا ظلمنا صبرنا ، وإذا أسىء إلينا حلمنا ، فيقال لهم : ادخلوا الجنة ، فنعم أجر العاملين »؟! .

إن الخوف من القيام بين يدى الله فى الحاسب ربى فى النفوس شدة الرقابة لربهم فخشيت أن تقترف معاصيه ، وجعلت رقابة الله خير وازع يمنعها من الوقوع فيما يغضبه ، ويوم تنسى النفوس هذا اليوم وما فيه وما سيجرى فى ساحته .. فإنها تضل وتشقى .. أو ما سمعت إلى هذا المشهد القرآنى يلقى باللائمة على قوم عصوا الله ، لأنهم نسوا هذا اليوم ؟ قال جل شأنه : ﴿ ويل للمطففين . الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم . يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ [المطففين : ١ - ٦] .

قم فى الدجى واضرع إليه وناده	ياعالما بعباده وخبيرا
إن لم أكن أهلا لعفوك : سيدى	فلقد عرفتك ساترا وغفورا

إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل . إلهى : إن لم أكن أهلاً لبلوغ رحمتك ، فإن رحمتك أهل لأن تبلغنى ، فأنت القائل : ﴿ ورحمتى وسعت كل شىء ﴾ [الأعراف : ١٥٦] ، وأنا شىء ، فلتسعنى رحمتك .. إن باب الله يقبل المطرودين ويعفو عن المذنبين . فأين طريق النجاة ؟ الصلح مع الله هو طريق النجاة .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الخاتمة

بم يكون الصلح مع الله ؟

أردت أن أختم هذه الصفحات التى اشتملت على هذه الموضوعات بهذه الخاتمة سائلاً الله أن يجعلها مسكاً ، وأن يجزى نبينا محمداً - ﷺ - عنا خير ما جزى نبياً عن أمته .. فهو الذى عرفنا الطريق إلى الله ، وبصرنا بسلوك خير الطرق ، ورسم أمامنا الطريق المستقيم ، وهو أقرب صلة بين نقطتين .

يارسول الله :

أنت الذى لما رفعت إلى السما	بك قد سمت وتزينت لسراك
أنت الذى ناداك ربك مرحبا	ولقد دعاك لقربه وحباك
وخفضت دين الشرك ياعلم الهدى	ورفعت دينك فاستقام هناك
ماذا يقول المادحون وما عسى	أن تجمع الكتاب من معناك
صلى عليك الله ياعلم الهدى	ما اشتاق مشتاق إلى مثواك

بم يكون الصلح مع الله ؟

الصلح مع الله يكون بالعمل ، والتمسك بكتاب الله وسنة رسوله . فالكتاب والسنة أستاذان جليلان فى جامعة الإسلام العظمى ، وقد اشتمل كل منهما على أحكام الله . وعلى وعده ووعيده ، وأمره ونهيه ، وقصص السابقين ، وآيات العقيدة ، وغير ذلك من الحقائق العلمية والأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والسياسية مما يضمن للبشرية سعادتها ورقيها ولذلك أحببت أن أذكر طرفا مما قاله سيد البشرية رسول الله - ﷺ - فى شأن القرآن العظيم والعمل به . وإذا كان رسول الله - ﷺ - يعظم القرآن ويجله ، فإن القرآن - بدوره - يأمرنا باتباع رسول الله - ﷺ - وهديه .. قال جل شأنه : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله ، فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ، والله غفور رحيم ﴾ . وقال سبحانه : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ .

وقال عز من قائل : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾ .

اسمع إلى سيدنا رسول الله ـ ﷺ ـ يبين خير الناس فيقول : « **خيركم من تعلم القرآن وعلمه** » .. ثم اسمع إلى فضل تلاوة هذا الكتاب وما أعده الله لتاليه من الأجر العظيم : « **من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها . لا أقول (آلم) حرف ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف** » .

وقال صلوا الله وسلامه عليه : « **من استمع إلى آية من كتاب الله كتبت له حسنة مضاعفة ، ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة** » .

ثم اعجب لهذا الفضل العظيم الذى اختص الله به من شغل بالقرآن عن مسألة الله .. يقول ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « **يقول الرب تبارك وتعالى : من شغله القرآن عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين : وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه** » .

ثم انظر إلى فضل الله تعالى وكيف أعطى المتعتع بالقرآن الذى تشق عليه القراءة أعطاه أجرين ، إذ أن الثواب على قدر المشقة . قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة . والذى يقرأ القرآن ويتعتع فيه وهو عليه شاق : له أجران** » .

وقد قال أبو ذر لرسول الله ـ ﷺ ـ : أوصنى ، قال : « **عليك بتقوى الله فإنها رأس الأمر كله** » ، فقلت : يارسول الله زدنى ، قال : « **عليك بتلاوة القرآن فإنه نور لك فى الأرض وذخر لك فى السماء** » .

فاللهم اجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ، ونور صدورنا ، وجلاء همنا وذهاب حزننا . والحمد لله أولاً وآخرا . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

فضيلة الشيخ / عبد الحميد كشك

الفهرس